ناجي علوش

الأساطير والوقائع

الصّهيونيّة والأمّة العربيّة



الأساطير والوقائع:

الصهيونية والأمة العربية

ناجي علوش

الأساطير والوقائع:
الصهيونية والأمة العربية



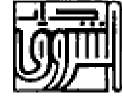
1998

رقم التصنيف: ٣٢٠,٥٤
المؤلف ومن هو في حكمه: ناجي علوش
عنوان الكتاب: الاساطير والوقائع: الصهيونية والامة العربية
الموضوع الرئيسي: ١- العلوم الاجتماعية
٢- الصهيونية
رقم الإيداع: ٤٧ / ١ / ١٩٩٨
بيانات النشر : عمان: دار الشروق

● تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

رقم الاجازة المتسلسل: ٢٧ / ١ / ١٩٩٨

● الأساطير والوقائع: الصهيونية والأمة العربية
● ناجي علوش
● الطبعة العربية الأولى، الأصدار الأول ١٩٩٨.



دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : ٦١٨١٩٠ / ٦١٨١٩١ / ٦٢٤٣٢١ فاكس : ٦١٠٠٦٥
ص.ب : ٩٢٦٤٦٣ الرمز البريدي : ١١١١٠ عمان - الاردن

التوزيع في فلسطين :
دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله - المنارة - الشارع الرئيسي هاتف : ٩٩٨٥٩٧٨

التنضيد والاخراج الداخلي وتصميم الغلاف وفرز الألوان و الأفلام:
الشروق للدعاية والإعلان والتسويق / قسم الخدمات المطبعية
هاتف : ٦١٨١٩٠ / ١ فاكس ٦١٠٠٦٥ / ص.ب. ٩٢٦٤٦٣ عمان (١١١١٠) الأردن
تاريخ الصدور: كانون ثاني/ يناير ١٩٩٨

المقدمة

منذ مؤتمر بال، سنة ١٨٩٧، والصهيونية تشغل بال الكتاب والصحافيين والسياسيين والجماهير العربية والفئات العربية الحاكمة. ولقد تناول الكتاب والصحافيون الظاهرة بأساليب مختلفة، بعضها محايد [١] وبعضها نقدي، وبعضها منذر محذر، كما فعل الصحافي نجيب نصار[٢].

وحاول هؤلاء المحذرون المنذرون أن يعبئوا ويحرضوا، فنشروا بعض ما كتبه الكتاب الصهيونيون، وذكروا بقرارات المؤتمرات، وأشاروا الى الهجرة، وبناء المستعمرات. ولم يكتفوا بذلك، فأخذوا يذكرون بخطط الصهيونية العالمية[٣]، وبما جاء في برتوكولات حكماء صهيون.

وقام بعضهم، بذكر ما ورد في العهد القديم.

ولقد كان ما كتب في الصحف والكتب، وأذيع في وسائل الاعلام، كثيراً الى الدرجة التي لا تسمح بالاحاطة به، خلال مائة عام،منذ ١٨٩٧.

وعليه،فان العودة الى الموضوع اليوم،تبدو وكأنها تكرار لما كتب وأذيع... ومع ذلك قررت أن أعود إليه، لا لأكرر،بل لأعود الى الموضوع،بعد أن ارتفعت رايات السلام، وأعيد طرحه من جديد، مُنْطَلقاً من الاسئلة التالية: ١) ما طبيعة هذا الكيان؟... وهل تسمح طبيعته أن يكون

مُسالماً؟.. وما دام هذا الكيان مقرراً أن يبقى.. فهل يمكن أن يبقى، ويسمح للأمة العربية أن تبقى وتنمو وتبني، ما دام قادراً على الحيلولة دون ذلك؟.

ويجد القارئ أجوبتي في ثنايا الكتاب.

والحقيقة ان الاجابة على الاسئلة المذكورة أعلاه، لم تكن سهلة، مع أنني ظننتها كذلك. ويعود ذلك الى أمرين:

الأول: لأن المادة في كل باب طرقته واسعة، ولذلك لم تكن الدراسة الشاملة ممكنة، ولا كان الاختيار سهلاً.

والثاني: لأن كتابة كتاب صغير للقارئ العادي وللمناضل السياسي، يكون جامعاً وموجزاً وواضحاً، قضية ليست سهلة، وان كانت ضرورية.

وموضوع الكتاب هو: الصهيونية والأمة العربية، أي كيف تنظر الصهيونية الى الأمة العربية؟. وكيف ترى نظرياً علاقة وجود دولتها بالوجود العربي، وكيف تتصرف عملياً؟.

واضطررت هنا أن أعود الى «أساطير بني اسرائيل»، وأن أحاول تفسير تحوُّل هذه الأساطير الخرافية بطبيعتها الى وقائع، ومع أنّها «وقائع اسطورية»، تتناقض مع الفكر الفلسفي والعلمي والقانوني للعصر الحديث، لكنها تنسجم انسجاماً كاملاً مع وقائعه، من غزوات البرتغاليين والاسبان والفرنسيين والانجليز للعالمين القديم والحديث، الى حروب أوروبة الرهيبة في القرون الثلاثة الاخيرة، وخاصة الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، والحروب التي

تلتها،من الحرب الكورية، الى الحرب الفياتنامية، ومن الحروب « الاسرائيلية » الى العدوان الامبريالي الدولي على العراق.

المهم ان « دولة اسرائيل » التي استندت نظرياً الى العهد القديم، وسياسياً الى كتابات المنظرين الصهيونيين عامة، والى كتاب هرتزل « الدولة اليهودية » وقرارات المؤتمرات الصهيونية خاصة(٤)،تمثل اليوم قوة عسكرية مدججة بالسلاح، ذات برنامج معلن، يفرض سلامها على الوطن العربي والعالم الاسلامي، واعادة صياغة هذين العالمين، بما يوافق استمرار الوجود الصهيوني وتطوره.

واذا كنا في الماضي، وحتى قيام هذه الدولة، سنة ١٩٤٨، نبحث عن الاشارات والدلالات في الكتابات والوثائق، فإننا اليوم نملك ذخيرة أغنى واكثر وضوحاً،وهي « أعمال دولة اسرائيل » في الأرض المحتلة وما جاورها، وفي الوطن العربي والعالم الاسلامي، وكل العالم...

ولذلك سميت الكتاب: « الأساطير والوقائع: الصهيونية والأمة العربية ».

وآمل أن يسعف الوقت على كتابة كتاب آخر، يتناول الموقف العربي من الصهيونية، و« دولة اسرائيل »، لأكشف المفارقة، ولأبين الفرق النوعي بين الموقفين النظريين والعمليين.

وإني اذ أترك القارئ مع الكتاب،آمل أن أكون قد بَرّرتُ بالجهد الذي بذلت نشر هذا الكتاب، وتقديمه للقارئ العربي الذي يواجه الكثير من

الأضاليل والدعاوى والاشكالات في هذه الأيام، وخاصة بعد أن رفع « معسكر السلام » راياته، وجاهر بدعاواه، وأطلق إشاعاته بكل طاقاته؛ بينما يقف العرب غير موحدين،لأن في حكوماتهم من يرى السلام خياراً استراتيجياً،فيعمل له، ومن يرى السلام معروضاً فيسايره، ومن يراه خياراً معادياً، لابُدّ من مواجهته، ولكن اختلاف الخيارات، يقود الى البلبلة التي تنعكس في حياة الجماهير ومواقفها.

ناجي علوش

هوامش المقدمة

١– د. سهام نصار: موقف الصحافة المصرية من الصهيونية ١٨٩٧ – ١٩١٧. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

٢– وليد خليف: نجيب نصار، شيخ الصحافة الفلسطينية،وصاحب جريدة الكرمل. الناصرة، مطبعة فينوس، ١٩٩٠.

٣– مراجع الصحافة العربية:

– سليمان التاجي الفاروقي: أطماع اليهود السياسية– المفيد، بيروت، العدد ٦٥١، ٢٨ آذار ١٩١١. ص ١.

– شكري العسلي: قلعة الفولة. الاتحاد العثماني– بيروت، العدد ٧٣٥، ١٨ شباط ١٩١١.

– الفضل بن سهل: كتاب من صلاح الدين الأيوبي، الى قائد الحملة الحورانيّة، سامي باشا الفاروقي، المقتبس، العدد ٥٤٢، ٥ كانون الأول ١٩١٠، ص ١.

– تاريخ الحركة الصهيونية، والأسباب التي تحمل الحكومة العثمانية على مقاومتها. الهدى، نيويورك، العدد ٦٩، ١٣ أيار ١٩١١.

– حمدي، مستقبل فلسطين: المؤيد– القاهرة ١١ أغسطس ١٩١٠، ص ١–٢.

– ي.ك.ش. الاستعمار الصهيوني، ثلاث حلقات، المقتبس، الاعداد ٤٦٥ و٤٦٧ و٤٦٩ و٤ و٦ و٨/٩/١٩١٠.

– فلسطين والاسرائيليون: الكوثر ١ نيسان ١٩١١، ص ٤٣٣–٤٣٨، و٢٥/٨/١٩٩١، ص ١١٩–١٢٠.

٤– Theodor Hertzl: The Jewish State. H.Pordes, London 1967.



« ظاهرتان هامتان، لهما نفس الطبيعة، بيد أنهما متعارضتان، لم تجذبا انتباه أحد حتى الآن. تتوضحان في هذه الآونة في تركية الآسيوية، أعني، يقظة الأمة العربية، وجهد اليهود الخفي لاعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع. مصير هاتين الحركتين هو أن تتعارضا باستمرار، حتى تنتصر إحداهما على الأخرى. وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع، بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متضاربين، يتعلق مصير العالم بأجمعه، وليس للمرة الاولى على كل حال، تناقش في الأقطار العربية مصالح أوروبة في حوض البحر الابيض المتوسط،لان هذه المنطقة تصل بين ثلاث قارات وثلاثة بحار،كانت على مدى العهود المتفاوتة مسرحاً لاحداث سياسية أو دينية، قلبت مصير العالم بأسره».

(نجيب عازوري –يقظة الأمة العربية. تعريب وتقديم د.أحمد ابو ملحم،ص ٢٣ و ٤١).

هذه رؤية نجيب عازوري، سنة ١٩٠٥، حول الحركة الصهيونية، ممثلة بما أسماه عازوري: « جهد اليهود الخفي لاعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع» من جهة، و« يقظة الأمة العربية » اي القومية العربية من جهة أخرى.

وقد علّق د.أحمد ابو ملحم،مترجم الكتاب ومقدمه على هذا بقوله: «هذه رؤية، تكاد تكون نبوءة عميقة وجذرية وشاملة» (ص ٢٣).

ويهمنا في هذه الرؤية أربع قضايا:

الأولى: أن الظاهرتين أي «يقظة الأمة العربية»، و«جهد اليهود الخفي لاعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع» ظاهرتان هامتان.

الثانية: أن: «مصير هاتين الحركتين هو أن تتعارضا باستمرار، حتى تنتصر احداهما على الأخرى»، وعليه فان صاحب الرؤيا،لم يَرَ مكاناً للتوفيق بينهما، كما رأى بعض الساسة والكتاب، قبل قيام دولة الاغتصاب الصهيوني، وكما رأى بعض الحكام والساسة والكتاب العرب، بعد قيام هذه الدولة.

الثالثة: «أنه على النتيجة النهائية لهذا الصراع،بين هذين الشعبين، اللذين يمثلان مبدأين متضاربين، يتعلق مصير العالم بأجمعه».

الرابعة: ان هذه المرة، ليست الأولى، حيث: «تناقش في الاقطار العربية مصالح أوروبة في حوض البحر الابيض المتوسط» لأهمية هذه المنطقة.

وبغض النظر عن أية خلافات،في تفاصيل هذه الرؤية، وفي النظر إلى طبيعة الحركتين و«الشعبين»،فان هذه الرؤية، استطاعت أن تحيط بعناصر الصراع وبخطورته. فهناك ظاهرتان هامتان. وهما متعارضتان،ومصيرهما ان

تتعارضا باستمرار،حتى تنتصر واحدة على الأخرى، وان «الشعبين»،وبغض النظر عن الخلاف هنا، في النظرة الى العرب واليهود، يمثلان مبدأين متناقضين،وان الموضوع يتعلق بمصالح اوروبة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وتنبع أهمية هذا النص، من أنه استطاع ان يفهم طبيعة التناقض، وأن يكتشف، أبعاد الصراع، منذ بداية القرن، وعندما كانت الحركة الصهيونية، ابنة ثماني سنوات، اذا اعتبرنا ان الحركة الصهيونية، ولدت في مؤتمر بال سنة ١٨٩٧؛ وأن خطرها أصبح جدياً، منذ ذلك الحين،لا قبل ذلك، عندما كانت مجرد حركات سياسية مبعثرة، تدعو الى وحدة اليهود، والى العودة الى «أرض الميعاد» فلسطين.

فما الذي دعا نجيب عازوري الى فهم طبيعة التناقض، واكتشاف أبعاد الصراع؟. وهل وعت الحركة السياسية العربية هذا الخطر؟، وكيف سارت الأمور، منذ ذلك الحين حتى الآن؟.

لقد كان نجيب عازوري مثقفاً، درس في باريس،وعمل مساعداً لحاكم القدس العثماني، حوالى خمس سنوات (١٨٩٩-١٩٠٤) ثم ذهب إلى مصر، وأصدر صحيفة يومية بالفرنسية (Le guotidieu de e'Egypte). وما لبث أن غادر الى باريس،ليواصل نشاطه[١].

ويبدو أنه خلال ذلك اطلع على حقيقة النشاط الصهيوني، وعلى البرامج الاستعمارية الاوربية.

وكان الى ذلك مطلعاً على أهداف اليقظة العربية.

ولذلك، فان عازوري،الذي تحتاج سيرته ومواقفه الى وقفة مدققة[٢]، أصر على ايضاح طبيعة هذا الخطر، في كتابه هذا « يقظة الأمة العربية »، وفي كتاب آخر، أسماه: « الخطر اليهودي العالمي: تصريحات ودراسات سياسية »[٣].

ويقول عازوري: « من الممكن أن نسأل عن الدافع الذي دفعنا الى الكلام عن اليهود في كتاب سياسي، يتناول الشطر الآسيوي من القضية الشرقية »، ولكنه ما يلبث أن يجيب: « ذلك أن حركتنا تظهر، في وقت توشك فيه « اسرائيل » على النجاح في خططها الهادفة إلى السيطرة على العالم، لتقضي على تلك الخطط ».

ويحاول عازوري أن يكشف بعض هذه الاخطار في كتابه: « يقظة الأمة العربية »[٤]. ولذلك،فهو يحاول أن يؤكد على ما يلي:

١-ان « يهود عصرنا » أدركوا الاخطاء التي ارتكبها أجدادهم. وهم يحاولون الآن أن يتجنبوها. وذلك عن طريق الاستيلاء: « على الجزء الذي لم يستطع أسلافهم امتلاكه، واحتلالهم التخوم الطبيعية للبلاد، قبل كل شيء. هاتان النقطتان هامتان في ميدان عمل الصهاينة »[٥]. وهذا يعني ضرورة الاستيلاء على السهل الساحلي، وعلى مناطق الحدود في الشمال.

ويضيف عازوري أن هذه الحدود بالنسبة لهم، هي: « جبل حرمون الذي يحوي منبع نهر الاردن، ووادي الليطاني في الشمال،بالاضافة الى المنطقة المحصورة بين راشيا وصيدا كطليعة حراسة، وقناة السويس وشبه جزيرة سيناء والصحراء العربية في الشرق،والبحر الابيض المتوسط في الغرب »[٦].

وتبلغ مساحة فلسطين الممتدة ضمن هذه الحدود، حوالي خمسين ألفاً من الكيلومترات تقريباً[٧].

والاهم من هذا «ان فلسطين المؤسسة هكذا، تصبح بلاداً لا تؤخذ من أيدي شعب، يعرف كيف يدافع عنها. يحيط النظر من قمة حرمون بامتدادات شاسعة، يشرف عليها بكاملها من القدس،حتى سهول الفرات،ومن البحر المتوسط حتى هضبة نجد»[٨].

٢ـ ان الطرفين المتنازعين، لا تكافؤ بينهما: «فمن جهة النزاع، وعدم التنظيم والجهل والبؤس»، وهذا وضع العرب، «ومن جهة أخرى الاتحاد والغنى والمركزية والعمل الموجه بفكرة واحدة فقط، تبعاً لبرنامج صُمّم سلفاً»[٩]،وهذا وضع الحركة الصهيونية.

ولذلك اعتبر عازوري أنه مطالب بمهمتين:

الاولى :أن يكشف للعالم: «أهمية الحركة العربية».

والثانية: وان يكشف أيضاً:«الخطر الذي تتعرض له من جهة أخرى» لانه:«خطر يتعاظم الخوف منه»، فهو :«يهيأ في الظل وفي السر»[١٠].

وكان نجيب عازوري،يعمل على ثلاثة أصعدة:

الأول: ضد الاحتلال العثماني الذي كان يعتبره مصدر كل الشرور.

والثاني: ضد مخاطر الصهيونية، التي لم يكن النضال ضدها، قد أخذ مجراه، إلاّ في حدود في فلسطين[١١].

والثالث: ضد حالة الاستسلام العربي، وفي سبيل التحرر والوحدة.

وكان لدى نجيب عازوري هنا مشروعه القومي، الرامي الى بناء امبراطورية عربية، أو تحقيق كونفدرالية[١٢].

وقد ارتكز مشروعه على العمل التنظيمي، فأسس حزباً، أسماه «رابطة الوطن العربي» [١٣]، وأصدر صحيفة اسماها الاستقلال العربي [١٤]، وأصدر عدداً من الكتب، وأعد لانتفاضة مسلحة، سنة ١٩١٢-١٩١٣، ولذلك حكم بالاعدام [١٥].

ولكن عازوري. كان مقتنعاً، وهو ذو ثقافة فرنسية، أن حكومة فرنسا يمكن ان تقف معه في هذا المشروع(١٦)، وأنه يستطيع أن يقنع الحكومة الفرنسية، وربما بعض الرأي العام الاوروبي بأهمية الحركة العربية،شأنه شأن بعض القيادات العربية، آنذاك.

هامش -ا-

١ -نجيب عازوري : يقظة الأمة العربية،تعريب وتقديم د. أحمد أبو ملحم،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ص١٨ .

٢ -لأنه كان ماسونياً،وكان يرى إمكانية ان ترعى فرنسا المطالب العربية ،يراجع :

أ- نجيب عازوري :المرجع السابق،ص١٨-١٩ .

ب- مكي حبيب المؤمن وعلي عجيل منهل : من طلائع يقظة الأمة العربية،دار الشؤون الثقافية العامة- وزارة الثقافة والاعلام -بغداد ١٩٨٦،ص٤٥-٥٢ .

جـ- د.اسعد رزوق :نجيب عازوري الوحدوي المجهول،المستقبل العربي،العدد ١١ / ١٩٨٠.

د- حازم صاغية : ،نجيب عازوري هل هو حقاً رائد قومي؟. مجلة دراسات عربية ١١ / ١٩٧٩.

هـ- E.Kedourie:Arabic Political Memoirs, Frank. Cass: London, 1974, P.P. 111-121.

٣ -نجيب عازوري : المرجع السابق ،ص٢٢وص٣٨ .

٤ -نجيب عازوري : المرجع السابق ،ص٣٩ .

٥ -نجيب عازوري : المرجع السابق ،ص٤٩ .

٦-نجيب عازوري: المرجع السابق ،ص٤٩ .

٧-نجيب عازوري: المرجع السابق ،ص٥٠ .

٨-نجيب عازوري: المرجع السابق ،ص٥٩ .

٩-نجيب عازوري: المرجع السابق ،ص١٦ .

١٠-نجيب عازوري: المرجع السابق ،ص٤٢ .

١١- ناجي علوش:الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية ، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٨، ط٢ .

١٢-نجيب عازوري:المرجع السابق ،ص٣٧ .

١٣-نجيب عازوري:المرجع السابق ،ص١٨ .

Elie Kedourie, Ibid, P.P.113

١٤-مكي حبيب المؤمن وعلي عجيل منهل: المرجع السابق،ص٤٨ .

Elie Kedourie: Ibid P.P.117-118.

١٥- ويبدو أنه حكم بالاعدام مرتين، مرة بعد خروجه من القدس، سنة ١٩٠٤ ،ومرة بعد محاولة «اشعال ثورة مسلحة»

Elie Kedourie :Ibid.P.P.113.

١٦- Elie Kedourie:Ibid.P.P.111-121

ولكن يأسه من فرنسا، لم يمنعه من التوجه الى ايطاليا، بعد الهجوم على طرابلس، والى بريطانيا .

-٢-

وكانت الحركة الصهيونية، قد كشفت آنذاك كل أهدافها، قبل مؤتمر بال ١٨٩٧ ،وبعده، ولم يكن صعباً على مثقف، مثل عازوري، أن يفهم ذلك، وهو يقرأ الفرنسية، ويعيش في فرنسا. ثم وهو نائب حاكم القدس، في سنوات مهمة(١٨٨٩–١٩٠٤).

فعلى صعيد الفكر كان قادة الفكر الصهيوني، قد أعلنوا برنامجهم، قبل مؤتمر بال. فقد كتب برنارد لازار(١٨٦٥–١٩٠٣) (BERNARD LAZARE): « بالنسبة لليهودي،فان كلمة قومية يجب ان تعني الحرية. واليهودي الذي يمكن ان يعلن اليوم « أنا قومي »، سوف لا يكون قائلاً، بأية طريقة موجزة، حاسمة « أنا انسان أسعى لاعادة بناء دولة يهودية في فلسطين، واحلم باستعادة القدس » إنه سيكون قائلاً: « أريد ان أكون انساناً في تمام الحرية، أريد أن استمتع باشراق الشمس، أريد إن أهرب من الاضطهاد،أ ن أفر من الغضب، أ ن أخلص من الامتهان الذي يسعى الناس للتغلب عليّ به »، وفي بعض لحظات التاريخ، فان القومية،بالنسبة للجماعات البشرية، « هي التعبير عن روح الحرية »[١].

ولازار هنا، يربط بين القومية والحرية، وبناء دولة في فلسطين، واستعادة القدس، على أن ذلك يعني التعبير الأقوى والأجلى عن الحرية.

ويكتب ريتشارد جيمس هوراشيو جوت هيل (١٨٦٢–١٩٣٦) (Richard James Horatio Gottheil)، في مقالته أهداف الصهيونية، سنة(١٨٩٨)، «ومثل أمواج بحر غاضب، ترتفع وتهبط، وتاريخ اليهود، ليس إلاّ الخشبة العائمة (Log) لسفينة دمرتها العواصف، لا تستطيع أن تستقر، حتى تعود إلى السماء التي بدأت منها. وهذه السماء التي بدأت منها، كانت فلسطين. ولهذه السماء يجب أن تعود ثانية».

ولم يكتفِ ريتشارد جوت هيل بذلك،بل أضاف: «الى هذه السماء تعود محمية بضمانات دولية، تمنع الأمواج من أن تمس سفينتنا ثانية»[٢].

وقد تأكد هنا أمران: العودة والحماية الدولية.

وعاد ريتشارد جوت هيل، فأكد موضوع الحماية الدولية قائلاً :« نعتقد ان مثل هذه العودة،يجب ان تكون له ضمانة الدول العظمى،من أجل تأمين مستقبل مستقر لليهود»[٣].

وكان موسى هيس (١٨١٢–١٨٧٥) (Moses Hess)، قبل ذلك، قد أعلن :«الأمم ستنهض ثانية»[٤]، وان: «المسيحية والاسلام كليهما مجرد كتابات على شواهد القبور التي أقامها الاضطهاد البربري على قبور الأمم»[٥]. ويضيف هيس: «ان المسيحية التي وجدت على جثث الأمم القديمة، يجب ان تنسحب من المشاركة في الحياة الوطنية»،....«وحتى تستبدل نهائياً، بين الأمم الناهضة حديثاً، بدين مبني على القومية والتاريخ القومي،فان مثل هذا العصر المقبل،يمكنه أن ينظر الى اليهودية فقط،على أنها إطاره ونمطه الروحي»[٦].

وكان هيس، يعتقد أن فرنسا ستساعد اليهود في بناء :« مستوطناتهم التي يمكن ان تمتد من قناة السويس الى القدس، ومن ضفاف الاردن الى البحر الأبيض المتوسط ». وكان يدعو المتشككين الى قراءة كتاب ارنست لاهاران (Ernst Laharanne)، السكرتير الخاص لنابليون الثالث، وعنوانه :« المسألة الشرقية الجديدة »، وبالفرنسية : "La Nouvelle qustion da' Orient Reconstitution de la Nation Jiufe" الذي نشر، سنة ١٨٦٠، بعد أحداث سورية ولبنان.

ويرى لاهاران أنه :« ما من عضو في العرق (Race) اليهودي، يمكن ان يرفض الحق الأصلي وغير المتنازع عليه لشعبه في أرض أجداده، دون أن يُنكر ماضيه وأجداده ». ومثل هذا العمل غير لائق خاصة في وقت :« تكون فيه الظروف السياسية الاوروبية، لا تمنع عودة الدولة اليهودية فقط، بل أنها بالأحرى ستسهل تحقيقها. ولماذا يمكن أن تعارض القوة الاوربية اليوم الخطة، في ان يستعيد اليهود، مُوَحَّدين في مؤتمر، وطنهم القديم ».

ويضيف لاهاران :« إن هناك دعوة عظيمة مدخرة لليهود أن يكونوا القناة الحية للاتصال بين القارات الثلاث. ستكونون حملة الحضارة الى شعوب ما زالت بلا خبرة، ومعلميهم في العلوم الاوروبية، التي أسهم شعبكم بها كثيراً »(٧). ولم يكن غريبا ان يدعى الكتاب صهيونياً(٨).

وقراءة هس، تكشف لنا أن نجيب عازوري قد قرأه، و خاصة فيما يتعلق بالا شارة الى امتداد المستعمرات، من قناة السويس الى القدس، كما تكشف ان عازوري قد قرأ لاهاران، أو قرأ عنه.

ولكن عازوري لم يعرف خطر الصهيونية من القراءة. فمن المؤكد أنه تابع، خلال دراسته في فرنسا، موضوع المؤتمر الصهيوني، سنة ١٨٩٧، .وفرنسا ليست بعيدة عن بال التي عقد المؤتمر الصهيوني فيها [٩].

ومنذ انعقاد المؤتمر الصهيوني لم تَبْقَ الصهيونية مجرد صرخات، وأحزاب متفرقة. لقد أصبحت تُعَبِّر عن أهدافها بهيئة موحدة،هي المؤتمر الصهيوني العالمي، وبرنامج محدد، يتعلق باستعمار فلسطين.

وقد أخذت الصهيونية، منذ المؤتمر الأول،سنة ١٨٩٧، تعمل على محاور عدة، ابرزها:

١- تجميع صفوف اليهود، أينما كانوا، لبناء مؤسسة عالمية قادرة، على تعبئة اليهود وتنظيمهم، وتجنيدهم لاستعمار فلسطين.

٢- ضمان الحماية الدولية والتأييد الدولي.

٣-ترتيب الأمور مع السلطنة العثمانية.

٤- تذليل الصعوبات الناتجة عن الموقف العربي.

وكان الجهد واضحاً في كل هذه الميادين.

ولقد مضت تعبئة اليهود قدماً، منذ ١٨٩٧. وكانت الأخبار تنقل ذلك للعرب، بأشكال مختلفة، سواء بالحديث عن المؤتمرات الصهيونية، أو حملات جمع التبرعات،أو نتيجة اتصالات القيادات الصهيونية بالسلطان العثماني أو قيصر المانيا،أو الدول الأخرى. كما كان ينبه العرب النشاط

المحموم للحركة الاستيطانية، ورغم ان هذه الحركة لم تبدأ،سنة ١٨٩٧، لان النشاط الاستيطاني بدأ من قبل [١٠]، غير ان النشاط الاستيطاني ارتبط، وهو يتوسع بعد ١٨٩٧، بقيام دولة صهيونية[١١].

كان حشد اليهود، وتعبئة صفوفهم، وتنظيم قواهم، هو البند الأول في جدول أعمال القيادة الصهيونية، المنبثقة عن المؤتمر الصهيوني العالمي.

أمّا الهدف الثاني، فقد كان توفير أمرين:

الأول : قبول عثماني بالفكرة، لتسهيل دخول المستوطنين، وتأمين المستوطنات، وتمكينهم من تطوير أعمالها. ولم يكن ذلك سهلاً، بسبب مكانة القدس وفلسطين عند المسلمين،وارتباط السلطان عبد الحميد الثاني ببرنامج جامعة اسلامية. ولأن أية موافقة من هذا القبيل، سوف تستثير العرب الذين كانوا ناقمين،ويطالبون بالاصلاح.

ولذلك عملت قيادة الحركة الصهيونية على اختراق الرفض العثماني، عن طريق استغلال امتيازات الدول الكبرى، والاستفادة من حمايتها، وعن طريق استغلال أجهزة السلطة العثمانية. وظل الأمر كذلك، حتى بعد سقوط السلطان عبد الحميد، وتسلم حزب الاتحاد والترقي السلطة. ولم يستطع حزب الاتحاد والترقي، ورغم كل ما قيل من اختراق الصهيونية له، بأن يصل الى اتفاق علني مع الحركة الصهيونية،أو أن يغيّر من أساليب التعامل السابقة معها... تغييراً جوهرياً، مع وجود علاقات بين بعض قياداته والحركة الصهيونية[١٢].

الثاني : توفير حماية دولية. وكان هناك اتجاه في الحركة الصهيونية، يرى في بريطانيا خير الدول التي يعتمد عليها، إمّا لقناعة بأن تحررها حقيقي [١٣] وعليه،فان موقفها من اليهود منسجم مع هذا التحرر، أو لوجود تيار فيها، منذ اللورد أشلي، سنة ١٨٤٠ الذي كتب مذكرة الى بالمرستون وزير الخارجية، يبرر فيها :« وجود دومنيون كفؤ ومعترف به. . . » في فلسطين،تحت حماية بريطانيا، واختار له اليهود، وكما يقول :« هناك وطن بدون شعب، وأرشدنا الله في حكمته ورحمته الى شعب بدون وطن. شعبه الخاص الذي أحبه يوماً، كلا بل الذي ما زال يحبه، أبناء ابراهيم واسحق ويعقوب »[١٤].

وقد ظل التركيز على بريطانيا قائماً، حتى إصدار وعد بلفور، سنة ١٩١٧، واستمر بعد ذلك الى منتصف الحرب العالمية الثانية، حيث بدأ التحول نحو الولايات المتحدة الاميركية، مع التحول في ميزان القوى العالمي.

غير أن هذا لم يمنع ثيودور هرتزل من محاولة كسب موافقة قيصر ألمانية الذي أصبح ذا نفوذ في الآستانة، فكتب في يومياته يقول: « سأذهب الى الامبراطور الألماني .انه سوف يفهمني،لانه نشأ وتربى على فهم عظام الامور »[١٥].

وواصل هرتزل محاولاته،لانه كان يعرف تأثير المانية في السلطنة العثمانية، منذ ١٨٨٣[١٦]، حتى أثارت هذه الاتصالات رد فعل في بريطانيا،واتهمت الحركة الصهيونية بالعمل لألمانيا [١٧].

وزار هرتزل سانت بطرس سرج، سنة ١٩٠٣، للغرض عينه [١٨]. كما زار روما والتقى البابا في الخامس والعشرين من كانون الثاني (٢٥ يناير) ١٩٠٤. وقد أبلغه البابا رغم محاولة هرتزل طمأنته بأن الاماكن المقدسة، ستكون خارج اطار الدولة،بأنه لن يستطيع: «الاقرار بذلك والتصديق عليه أبداً». وكان هرتزل يطمع بتصريح بابوي، يعلن عدم الاعتراض على الصهيونية.

وحين قابل هرتزل ملك ايطاليا، وحدثه عن مشروع استعمار سيناء، وأوغنده، وعرج على تكوين مستعمرة في طرابلس الغرب، الهدف منها:« تحويل الفائض من الهجرة اليهودية إلى طرابلس الغرب، في ظل القوانين والمؤسسات الليبرالية الايطالية»، ردّ عليه الملك بقوله :« لكن هذه أيضاً (أي طرابلس الغرب)وطن لآخرين»،أو «بيت للغير»[١٩].

ولا نعتقد ان هرتزل كان يقصد التخلي عن بريطانيا، لأنه كان يكتب في مذكراته:«انجلترة، انجلترة العظيمة، انجلترة الحرة، انجلترة سيدة البحار،سوف تتفهم أهدافنا، ولنتأكد ان الفكرة الصهيونية سوف تنطلق في طيرانها من هنا، محلقة إلى أجواء أعلى وأبعد». وكان قد كتب، سنة ١٨٩٨ :« منذ اللحظة الأولى اتجهت أنظاري إلى انجلترة». وحين انعقد المؤتمر الصهيوني في لندن، سنة ١٩٠٠، قال :إن انعقاد المؤتمر في لندن كناية عن :«انتقال الصهيونية السياسية الى لندن، لكي تقدم نفسها رسمياً الى العالم الانجليزي، وتطلب تأييده... الأدبي والسياسي فقط»[٢٠].

وكان لذلك أسباب، فعدا عن وجود سلسلة من الصهيونيين الانجليز، الذين دافعوا عن فكرة استعمار فلسطين، من أمثال أشلي، والكولونيل البرت غولد سميد، ولورنس اوليفانت[٢١]، كانت هنالك المصالح البريطانية، في وجه المنافسة الفرنسية والروسية،،والهزة الكبرى التي أحدثها محمد علي باشا. ولذلك احتلت بريطانيا قبرص، سنة ١٨٧٨، واشترت أسهم الخديوي اسماعيل في قناة السويس، في الوقت عينه، ثم احتلت مصر، سنة ١٨٨٢[٢٢].

ولما كان هرتزل يعرف ذلك كله، فانه أراد أن يفتح الأبواب لمشروعه، عبر طرق أبواب العواصم، ليحقق منجزات، تدفع الى التسابق، لكسب مودته. وهذا ما جَعَله مرة يقول ١٨٩٦ :« دعهم يَسْتَشِرون حسداً من بعضهم بعضاً : الانجليز والروس، البروتستانت والكاثوليك، دعهم يقتتلون عليّ– هكذا يمضي مشروعنا قدماً »[٢٣].

واذا كان القبول العثماني الرسمي لم يتحقق، فان الاستعمار الصهيوني، بدأ،قبل ١٨٩٧، وأخذ بعداً جديداً سياسياً، منذ المؤتمر الصهيوني، ثم تقدّم، بعد ١٩٠٧.

أمّا الحماية الدولية، فقد كانت موجودة ضمناً، رغم عدم الاستجابة الروسية والالمانية والفرنسية والايطالية، وظلت ضمنية، حتى أعلن وعد بلفور، سنة ١٩١٧ .وتحولت إلى ضمانة أقوى وأوسع، عندما وافقت عصبة الأمم على صك الانتداب على فلسطين، وفيه وعد بلفور[٢٤].

وكان الهدف الثالث والأخير حلّ مشكلة العرب أصحاب الأرض في « فلسطين الكبرى »[٢٥].

وقد لجأت الحركة الصهيونية الى أساليب متعددة، يمكن أن نوجزها بما يلي:

١- اعتبار فلسطين الكبرى أرضاً بلا شعب. وهذا ما درجت عليه الدعاوى الصهيونية، منذ ١٨٤٠ ....، فلا مشكلة،لان الأرض التي سوف يستوطنها اليهود، هي أرض خلاء، ولذلك، فان الاستيطان سوف لا يقتلع أحداً[٢٦].

٢- الادعاء بان حركة الاستيطان ستكون حركة مسالمة، تسهم في تقدم فلسطين والبلاد المجاورة، وتعمل لرفعة السلطنة[٢٧]، وتحول :« دون احداث تغييرات بالقوة لاوضاع السيادة،التي يسري مفعولها هناك. ويجعل من تدخل الدول الكبرى مسألة لا لزوم لها. مع العلم بأن اخطار ذلك التدخل أصبحت معروفة تمام المعرفة في أوساط الدبلوماسية »[٢٨]. وسيكون هؤلاء الصهيونيون حملة المدنية والتحضر[٢٩]و« طليعة حراس الحضارة بوجه البربرية »[٣٠].

ومن أجل ذلك استخدمت وسائل للتغطية، منها ١- المطالبة بموقع في قبرص، أو في سيناء لتجميع اليهود، وإكسابهم الخبرات اللازمة. وقد كتب هيرتزل، سنة ١٨٩٨، في الدفاع عن ذلك قائلاً :تعطي« الحركة هدفاً اقليمياً قريب المنال،مع الاحتفاظ بصهيون كهَدَف نهائي »[٣١]. ٢- قصر المطالبة على اقامة وطن، وعدم استخدام كلمة دولة،لذلك اكّد ،ولفنسون أمام المؤتمر

الصهيوني العاشر(١٩١١)بأن الصهيونيين يريدون وطناً لا دولة[٣٢]. وقد كان هناك حرص على اتباع هذا «التكتيك». وهو ما عبر عنه ماكس نوردو (Max Nordau) (١٨٤٩-١٩٢٣)، سنة ١٩٢٠ في «تقييم خطة الصهيونية وتعاليمها منذ البداية» قائلاً: «بذلت ما في وسعي لاقناع المطالبين بدولة يهودية في فلسطين، أنه يمكننا العثور على مواربة، تعبر عن كل ما نعنيه، لكنها تقوله بطريقة تتحاشى تحريض الحكام الاتراك ...... واقترحت لفظ (Hermstätte)(بيت، دار، ملاذ، مأوى، موطن،منزل) كمرادف لكلمة« دولة "state". هذا هو تاريخ اللفظة التي تَعَرَّضت لتعليقات شتى. لقد كانت ملتبسة(ذا معنيين). لكننا جميعاً فهمنا ما هو المقصود بها. ودلت آنذاك بالنسبة لنا على دولة يهودية "Judestaat"، كما تدل عليها الآن... ولا حاجة بنا الآن لاخفاء هدفنا الحقيقي تحت المظاهر الكاذبة»[٣٣].

وكان يكمن وراء ذلك ما يمكن أن يسمى السياسية المرحلية[٣٤].

٣- العمل على اقناع العرب، بأن الاستيطان يرفع أسعار الأرض، ويزيد الازدهار،ولا يمس حقوق السكان. ولذلك كتب جودة ليون ماجنس (١٨٧٧-١٩٤٨) (Judeh Leon Magnes) سنة ١٩٣٠: «ان العالم لا في فلسطين فقط -يمكن أن يكون متجهاً نحو العنف وسفك الدماء. ولكن ألا يمكن ان يوافق معي معارضي (خصمي) ،على أن هناك فرصة أفضل لتحويل هذا الاتجاه الى سفك الدماء،إذا ما بذلنا كل جهد ممكن، سياسياً، كما هي الحال في الميادين

الأخرى، للعمل يداً بيداً ـ كمعلمين،ومساعدين، وأصدقاء، مع هذا العالم العربي الناهض »[٣٥].

فهل كان هذا ممكناً؟.

إن هذا لم يكن ممكناً، منذ البدء. لان الحركة الصهيونية، بدأت على أساس إقامة دولة، في « أرض الميعاد »، وطرحت:« مشروع اسرائيل الكبرى »، أو « فلسطين الكبرى »، وربطت ذلك بحشد من عشرة الى اثني عشر مليون يهودي، في فلسطين وما حولها، وبدور مرتبط بالقوى العظمى، وخاصة بريطانيا، وبحراسة المصالح الغربية الامبريالية في الوطن العربي، والبلاد الاسلامية وغير الاسلامية المجاورة. وكان هذا يطرح أكثر من مشكلة، بالنسبة للأمة العربية ولحركتها القومية، ولكل الاتجاهات الوطنية المعادية للاحتلال والامبريالية. وأبرز هذه المشاكل:

اولاً: احتلال أرض عربية، في قلب الوطن العربي، وفي مركز الاتصال بين أجزائه، تضم القدس. ولقد جاء شعار من الفرات الى النيل،ليزيد الشعور بالخطر، وليعقد موضوع الاستيطان، مهما كانت الدعاوى.

ورغم « التكتيك » الذي اتبعته الحركة الصهيونية لتخفيف مخاوف العرب، وحتى الدول غير المتحمسة، عربية أو أجنبية، فان التطورات العملية، والتصريحات العلنية،كانت تفضح كل شيء.

فلقد استمر الحديث عن الاستيطان والدولة، وارتبط ذلك بخرائط تنشر عن حدود فلسطين التوراتية[٣٦]، وعن ان وعود الله المشروطة لا تُلغى[٣٧]. كما ارتبط بتدفق الهجرة،ونشر برامج الحركة الصهيونية.

واذا كان ما أشرنا اليه مجرد دعاوى وَمَساعٍ، قبل ١٩١٧، فان اعلان وعد بلفور، في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧،أدخل القضية في مرحلة جديدة .لان القرار المذكور أعطى الحركة الصهيونية الفرصة التي تريد . وكما يرى أبا ايبان، فان القرار يعتبر: « النصر الديبلوماسي الحاسم للشعب اليهودي في العصر الحديث »[٣٨] .

ومنذ هذه اللحظة، بدأ تنفيذ المشروع الصهيوني بلا تردد .وأخذت الأمور تزداد وضوحاً، حتى قامت الدولة، سنة ١٩٤٧–١٩٤٨[٣٩] .

وزاد قيام الدولة الأمر وضوحاً، لأن قيامها اكّدً كل المخاوف السابقة، وأظهر ان كل التطمينات الخادعة لم تكن تعني فتيلاً .

ثم جاء قيام الدولة، ليكشف الاستراتيجية الصهيونية، بالنسبة للأمة العربية والقومية العربية . ان الصهيونية أوجدت قاعدتها، وأطلقت كل الاحتمالات التي تمّ تداولها سابقاً، والتي لم تكن في الحسبان .لأن وجود دولة، بوضع « دولة اسرائيل » السياسي والأمني، وبهواجس اليهود السياسية والأمنية، يطلق كل الاحتمالات السياسية والأمنية الخطرة .

ثانياً : بروز مشكلة الارتباط مع بريطانيا : الدولة الامبريالية الأولى ١٩١٧–١٩٤٧ . وكانت بريطانيا، قد خرجت من الحرب العالمية الأولى، وهي الأقوى، ولكنها كانت بالنسبة للعرب دولة معادية، شديدة العداء، احتلت أجزاء من الوطن العربي، أو كرست احتلالها فيها،من عدن وجنوب اليمن إلى عُمان والامارات العربية في الخليج،الى العراق وفلسطين ومصر والسودان .كما

أن بريطانيا، كانت قد تنكرت لاهداف «الثورة العربية الكبرى» واحتضنت الحركة الصهيونية.

ورافق اعلان وعد بلفور،سواء خلال مراحل اعداده،أو عند اعلانه، او بعد ذلك، تطورات في الموقف العالمي، لمصلحة الصهيونية،ومن ذلك:

١- أن البابا بندكت الخامس عشر،أبدى موافقته، عند مقابلة وفد صهيوني له في ١٠/٥/١٩١٧، على تولي بريطانيا شؤون فلسطين،وعلى«ا- انشاء مركز روحي وحضاري لليهود في فلسطين. ب- إقامة وطن قومي لليهود المضطهدين». وقد اعتبر البابا هذه الفكرة رائعة(٤٠). وهو ما لم يوافق علية البابا السابق،كما ذكرنا.

٢- أن الحركة الصهيونية، حصلت على موافقة فرنسية رسمية في ٤/٦/١٩١٧،تبدي، :«الشعور بالعطف على قضيتكم (اي الصهيونيين) التي يرتبط انتصار ها بانتصار الحلفاء». ولم يكن هذا قد حصل من قبل.

٣- أن الرئيس ولسن، رئيس الولايات المتحدة الاميركية، أدلى بدلوه أيضاً، معتبراً أن فلسطين لن تتأهل للديموقراطية، الاّ اذا :«امتلك اليهود فلسطين، كما سوف يمتلك العرب شبه جزيرتهم او البولونيون بولونية»(٤١).

وهذا كله، كان يجعل الاستيطان اليهودي ١٩١٧-١٩٤٧، جزءً من حرب عالمية ضد العرب، تشارك فيها كل الدول الامبريالية. كما أن هذا

كله،كان يجعل «دولة اسرائيل» ١٩٤٨– ١٩٩٧ جزءاً لا يتجزأ من السياسية العالمية المعادية للعرب، العاملة على تقسيمهم واخضاعهم، وتدمير قواهم وتبديد ثرواتهم.

وهنا نعود إلى نجيب عازوري، والى أطروحته، .لنسأل أنفسنا : ما الذي أكدته الوقائع، بشأن التناقض العربي –الصهيوني، بعد حوالي مائة عام، على بدء الصراع السياسي؟.

لقد أكدت الوقائع أن وجود الصهيونية في فلسطين، بما تمثله من أفكار وبرامج وارتباطات دولية، متناقض تماماً مع وجود الأمة وحركتها القومية. لذلك دار الصراع، منذ بدء وجود المستوطنات، وتطور بتطور قوى الطرفين، واتسع وتفاقم مع بروز الحركة العربية القومية، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

وكانت الحركة الصهيونية تعرف عدوها، منذ البدء .انه العرب، الأمة العربية. واذا كان حاييم وايزمن (Chaim Weizman)، رئيس المنظمة الصهيونية، يدعي أنه لم يسمع بحركة القومية العربية،إلا سنة ١٩٠٠[٤٢]،فان ذلك لا يلغي وجود الأمة، ولا وجود حركتها. ولا يمنع ان يكون احد زعماء الصهيونية، أحد ها عام(Ahard Ha-am Asher Zvigins Berg، قد نبّه الى أسلوب التعامل الاستعماري الاستيطاني مع العرب، أشار الى ذلك قائلاً: «وهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة، ويمتهنون حقوقهم بصورة معوجة ولا معقولة، ثم يوجهون لهم الاهانات دون اي مبرر كافٍ، ويفاخرون بتلك الأفعال فوق كل ذلك»[٤٣].

وكانت الى ذلك، قد بدأت حركة مقاومة عربية، سياسية وعملية، منذ ١٨٨٢[٤٤]، سنتحدث عنها، عندما نتحدث عن الحركة القومية العربية والصهيونية، في دراسة لاحقة.

وعلية، فان وجود الأمة كان مطروحاً على بساط البحث. واذا كان وجود «وطن قومي يهودي»، ومن ثم «دولة صهيونية» غير ممكن بقوة الصهيونية العالمية وحدها، فلا بُدّ من أن يخضع وجود الأمة لعاملين :١) الاحتلال ٢- التفتيت.

وبات واضحاً أن الحركة الصهيونية فعلت كل ما تستطيع لانجاح ترتيبات الاتفاق الروسي – الفرنسي –الانجليزي، الذي عرف فيما بعد باسم اتفاق سايكس بيكو، سنة ١٩١٦،من اجل اقتسام تركة السلطنة العثمانية، واستعمار الاجزاء غير المستعمرة أوروبياً من الوطن العربي. وكان مخطط الحركة الصهيونية ينسجم تماماً مع المشروع البريطاني– الفرنسي عامة..... ولكن اخضاع فلسطين للانتداب البريطاني،كان حسب خطة صهيونية مدروسة، نفذت بدقة.

وكان الهدف الصهيوني، ١٩١٧–١٩٤٧ اعداد القوة الصهيونية اللازمة للسيطرة على فلسطين، بحماية القوات البريطانية، ومنع العرب، خارج فلسطين، من امتلاك القوة اللازمة لمنع الصهيونية من تحقيق أهدافها.

ولذلك ظلت فلسطين مستعمرة. وظلت الأقطار العربية خاضعة لاستعمار مباشر، حتى لو قامت فيها حكومات،مثل مصر والعراق. وكان هذا الشرط ضرورياً، حتى تقوم «دولة اسرائيل».

وعندما قامت الدولة الصهيونية، سنة ١٩٤٨، انتهجت الدولة الصهيونية استراتيجية،ترتكز الى ثلاث دعائم:

الاولى: اكتساب القوة الذاتية، بتطوير الاقتصاد (٤٥) وبناء جيش قوي قادر(٤٦).

الثانية: توطيد التحالف الدولي، بجعل« دولة اسرائيل » جزءً من استراتيجية المواجهة الامبريالية العالمية، ضد الحركات القومية والشيوعية. واذا كان الارتباط الرئيس مع بريطانيا، حتى ١٩٥٧،فإنه أخذ يتحول،منذ ذلك الحين الى الولايات المتحدة الاميركية. ولم يلبث أن أصبح اميركياً.وقد أعدت الحركة الصهيونية لمثل هذا التحول، مع بداية الاربعينيات.

الثالثة: إضعاف الأمة العربية، وهزيمة حركتها القومية، عن ثلاث طرق: ١- توجيه الضربات العسكرية الكاسحة،كلما سنحت الفرصة. ولهذا كان عدوان ١٩٥٦ على مصر،بالتحالف مع الحكومتين البريطانية والفرنسية، وعدوان ١٩٦٧ على مصر والاردن وسورية، والعدوان على لبنان،سنة ١٩٨٢. ولهذا أيضا كانت الاعتداءات المتكررة على الأقطار العربية، ومنها الغارة على أحد مراكز الطاقة النووية في العراق، سنة ١٩٨١. وكان الهدف من ذلك الاحتلال. وتدمير القوى العسكرية، وبث روح الهزيمة.

٢-تأييد كل النشاطات الامبريالية المعادية للأمة، وتأجيج المعارك بين العرب وسائر دول العالم؛ وخاصة دول الجوار.

٣- إثارة أوسع التناقضات، بين الدول العربية، وبين الطوائف والأصول الأثنية، والاتجاهات السياسية المختلفة، وبث الفوضى في كل مكان.

ولذلك، كانت الأدبيات الصهيونية، تحاول دائماً أن تكرس الشعور بأن العرب ليسوا أمة، وأنهم مجموعات طوائف واثنيات متناقضة. وأن الاسلام فرض على هذه الاثنيات سلطة غاشمة. وعليه،فان تحرر هذه الاثنيات طبيعي.

ولقد عَبّأت الحركة الصهيونية بذلك، منذ البدء، ورغم انكشاف مقولة« شعب بلا أرض لأرض بلا شعب »، وخاصة بعد حركة تركيا الفتاة، سنة ١٩٠٨، فان الدعاوى الصهيونية، ظلت تسعى لاستصغار شأن العرب.

وبرز ذلك بعد الحرب العالمية الأولى، وبدا هذا واضحاً في كراس، بعنوان« الحركة العربية »، كتبه أحد قادة الحركة العمالية، وهو بن زفي "Y.Ben-Zvi" الذي صار الرئيس الثاني « لدولة اسرائيل ». يقول كاتب الكراس، « إن علينا أن نحدد موقفنا من هؤلاء السكان (العرب) الذين تربطنا بهم مصالح عملية، وروابط الوطن الواحد، ومستقبله المشترك ».

وحاول الكاتب أن يعرف بالعرب، ومن ثم بالعرب الفلسطينيين، فقال: « إن القبائل الي تتكلم العربية، ليست أمة، ولم تكن امة واحدة أو عرقاً واحداً. وليس لديهم اتجاه ذاتي أو موضوعي للوحدة ». ويضيف: « وباختصار، فإنه بسبب انتشار لغة العرب، لا يمكن التحدث عن أمة عربية واحدة، في اطار المنطقة التي فيها العربية سائدة ».

وأما بالنسبة للعرب في فلسطين، فان الكاتب يرى: « ان هنالك دلائل تاريخية واثنية مختلفة، تشير الى أن هذا المجتمع الزراعي(الاكثرية الواسعة من المجتمع العربي الفلسطيني) ينحدر من المجتمع اليهودي الزراعي القديم

–من الفلاحين السومريين واليهود –عامة الشعب التي ظلت مرتبطة بأرضها، ولم تذهب الى المنفى». وأن: «الوحدة الظاهرية، بين الملاكين والعمال من جيراننا» تعطلت، لا بسبب الامتيازات الطبقية فقط، ولكن أيضاً بالفوارق بين الجماعات القومية والدينية المختلفة: مسلمون (سنة)، متاولة، شراكسة، دروز، مسيحيون (من طوائف مختلفة)، سومريون، يهود قراؤن، الخ– الكل: «إحدى عشرة أمة، شعوب، وأفخاذ (فروع)، بالاضافة الى شيع أصغر»[٤٧].

هذا ما عملت الحركة العمالية الصهيونية للتعبئة به. ورغم وجود اتجاهات أخرى، كاتجاه مارتن بوبر (Martin Buber) (١٨٩٩–١٩٣٣)ود. اسحق ابشتاين (Yitshak Episteins)، فان اتجاه بن زفي واليهودية الارثوذكسية، والجماعات اليهودية المتطرفة هو الذي ساد.

ومن هنا عمل العدو الصهيوني على مساندة كل التحركات في شمال العراق، وجنوب السودان[٤٨].

ولما كان الموضوع واسعاً، فإننا سنقدم بعض النماذج المتعلقة باثارة إشكالات طائفية وإثنية.

وأول النماذج التي نقدمها، تتعلق بلبنان. فقد شغل بال بن غوريون (David Ben GuruonN)(١٨٨٦–) في أوائل الخمسينيات موضوع اصطناع: «دولة مسيحية في لبنان». وقد نقل موشي شاريت في مذكراته بعض هذه الحوارات :

بن غوريون :« هذا هو الوقت لدفع لبنان، اي المارونيين، في تلك البلاد، إلى إعلان دولة مسيحية».

شاريت : « هذا هُراء. المارونيون منقسمون. أنصار الانفصال المسيحي ضعفاء،ولا يجرؤون على عمل شيء».

بن غوريون :« اذا ما حصل مثل هذا التطور، فلن تجرؤ القوى المسيحية على معارضته».

وعاد بن غوريون، فكتب الى موشي شاريت في ٢٧/٢/١٩٥٤ ما يلي:

« من الواضح أن لبنان هو أضعف حلقة في جامعة الدول العربية. الأقليات الأخرى في الدول العربية كلها مسلمة باستثناء الأقباط.... المسيحيون في لبنان ليسوا كذلك. إنهم أكثرية في لبنان التاريخي. لذلك فخلق دولة مسيحية يكون عملاً طبيعياً. لأن لها جذوراً تاريخية، وستجد دعماً واسعاً في العالم المسيحي الكاثوليكي والبروتستنتي.

في الاحوال العادية، يكون ذلك مستحيلاً تقريباً. اولاً، وقبل كل شيء، بسبب افتقار المسيحيين لأخذ زمام المبادرة، وافتقارهم للشجاعة. أمّا في أيام الفوضى أو الثورة أو الحرب الاهلية، فتأخذ الامور شكلاً آخر، وحتى الضعيف يعلن نفسه بطلاً. ربما كان الوقت الحالي هو الوقت المناسب لخلق دولة مسيحية في جوارنا. ودون مبادرة منا، ودون مساعدة كبيرة لن يتم ذلك.. هذا يعني أن الوقت والطاقة والوسائل يجب أن تسخر جميعها له. وأن علينا ان نعمل بكل الطرق الممكنة لنحدث تغييراً جذرياً في لبنان»[٤٩].

ويكتب شاريت في يومياته، يوم ١٦ / ٥ / ١٩٥٤ عن موشي دايان (Moshe Dayan)، رئيس الاركان :

« بالنسبة له، كان الشيء الضروري الوحيد هو العثور على ضابط، أو حتى رائد فقط. علينا إما أن نكسب وده، أو نشتريه بالمال، لنجعله يوافق على إعلان نفسه مُخلِّصاً للسكان المارونيين. وعندها يدخل الجيش الاسرائيلي إلى لبنان، ويحتل الأرض اللازمة، ويقيم نظاماً مسيحياً يتحالف مع إسرائيل. وسنضم المنطقة من الليطاني جنوباً الى اسرائيل »[٥٠].

ويعود شاريت الى هذا الموضوع يوم ٢٨ / ٥ / ١٩٥٤[٥١].

ويشير شاريت، يوم ٢١ / ٩ / ١٩٥٥ الى تقرير عن لقاء مع زعيم حزب الأمة السوداني، والغرض الوحيد هو :« ابعاد السودان عن اعتمادها الاقتصادي على مصر »[٥٢].

وقد تم تأكيد هذا التوجه في اكثر من برنامج وتصريح وكتاب. ولو أخذنا مثلاً كتاب « خنجر اسرائيل » الذي أصدره الصحافي الهندي كرانجيا، والذي نشر فيه احدى الخطط الصهيونية، لوجدنا في هذه الخطة ما يؤكد هذا التوجه. ولما كانت الخطة قائمة على : « تقويض الوحدة العربية، وبث الخلافات الدينية بين العرب »، فقد رسمت الخطة الصهيونية : « وجوب اتخاذ الاجراءات، منذ اللحظة الاولى من الحرب لانشاء دول جديدة في أراضي الاقطار العربية :

دولة درزية (منطقة الصحراء وجبل تدمر) .

دولة شيعية، تشمل قسماً من لبنان (اريتزاشر)،اي منطقة جبل عامل ونواحيها.

دولة علوية (اللاذقية حتى الحدود التركية).

دولة مارونية (جبال لبنان، حتى الحدود الشمالية الحالية للبنان).

دولة كردية(شمال العراق).

دولة او منطقة ذات استقلال ذاتي للأقباط ».

وتضيف الخطة أطروحتين أخريين:

الأولى : « وستوزع الأراضي العربية (بما في ذلك المنطقة الصحراوية) بين الدول الجديدة ».

الثانية :« تبقى المناطق العربية التالية :دمشق، جنوبي العراق، مصر، وسط العربية السعودية وجنوبها. ومن المرغوب فيه انشاء ممرات غير عربية، تشق طريقها عبر هذه المناطق العربية »[٥٣].

واذا كنا قد رأينا الأساس النظري لهذه السياسة، فإنا رأينا، وما زلنا نرى وقائعها العملية.

هامش -٢-

١- Arthur Hertzberg (Ed):The Gzionist Idea- A Historical Analysis and Reader K.A TEMPLE BOOK. AT HENEUM,New York 1973.P.P.473

٢- Arthur Hertzberg :Ibid.P.P.497

٣- Arthur Hertzberg :Ibid.P.P.500

٤- Arthur Hertzberg :Ibid.P.P122

٥- Arthur Hertzberg :Ibid.P.P.122

٦- Arthur Hertzberg :Ibid.P.P.124-125

٧- Arthur Hertzberg :Ibid.P.P.133-134

٨- Arthur Hertzberg :Ibid.P.P.621-622

٩- بازل،وبالفرنسية بال Bale، غربي زوريخ بثمان وثمانين ونصف كيلومتر (٥٥ميلاً)، ملتقى سويسرا مع المانيا وفرنسا، ثاني اكبر مدينة في سويسرا ،ومركز الصناعات الكيماوية ،وميناء رئيس ومركز لسكك الحديد،أنشئت فيها اول جامعة سنة ١٤٦٠.

The Encyclopedia Americana International, E.d.1986.P.P.308.

١٠-ناجي علوش : المرجع السابق،ص٧-٩ .

١١- ناجي علوش :المرجع السابق، ص٩-٤٧ .

١٢- NEVILLE.J.MANDEL: The Azabs and Zionism before world war I.University of California Press.1976.P.P.71-140.

-AHARON COHEN: ISRAEL AND THE ARAB "WORLD .FUNK AND WABNALLS. NEW YORK .1970.P.P.72-77.

١٣- Arthur Hertzberg:Ibid .P.P.

ود. اسعد رزوق: اسرائيل الكبرى -دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني،م.ت.ف .مركز الابحاث ١٩٦٨ .ص ٢٠٤ والصفحات ٦٤,١٠١,١٠٣,١٩٤.

١٤- خالد القشطيني :تكوين الصهيونية .المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٦،ص١٩٣.

ود.اسعد رزوق : المرجع السابق، ص ٦١.

١٥- خالد القشطيني : المرجع السابق ،ص١٨٥.

١٦- خالد القشطيني : المرجع السابق، ص١٨٦.

١٧- د.اسعد رزوق :المرجع السابق،ص١٩٧.

١٨-د.اسعد رزوق :المرجع السابق، ص١٢٠.

١٩-د.اسعد رزوق : المرجع السابق،ص ١٢٢.

٢٠-د.اسعد رزوق : المرجع السابق، ص ٢٠٤-٢٠٥.

٢١- د. اسعد رزوق :المرجع السابق، ص ٣٠و٦١و٦٢و١٠٣- ١٠٤.

وخالد القشطيني :المرجع السابق، ص١٩٠.

٢٢- EDWARD DICEY: ENGLAND AND EGYPT. DARF PUBLISH-ERS LIMITED. LONDON 1986. P. P 1-28.

AFAF LUTFI AL- Sayyid: Egypt and Gromer. John Murray. 1986. P.P. 1-37, 38-53.

٢٣- د. اسعد رزوق :المرجع السابق، ص٥٣.

٢٤- ABBA EBAN:MY People ,"New Edition" BEHRMAN House INC, and Random House, 1948,P.P.353-365.

٢٥- AHARON COHEN,Ibid. P.P.64-69.249-257.

٢٦- AHARON COHEN :IBID.P.P.64-65.

٢٧-د.اسعد رزوق : المرجع السابق،ص١٩٥ .

٢٨- د.اسعد رزوق : المرجع السابق، ص١٤٦ .

٢٩- د. اسعد رزوق :المرجع السابق، ص١٤٩ .

وناجي علوش :المرجع السابق، ص٦٢ .

٣٠- د. اسعد رزوق :المرجع السابق، ص٥٦ .

٣١-د. اسعد رزوق :المرجع السابق، ص١٥٨ .

٣٢- د. اسعد رزوق : المرجع السابق، ص ١٩٥ .

٣٣- د.اسعد رزوق : المرجع السابق ،ص١٣١ .

٣٤- د. اسعد رزوق : المرجع السابق ،ص٨٩ .

٣٥- Arthur Hertzberg: Ibid .P.P.448-449

٣٦- د. أسعد رزوق :المرجع السابق، ص٣٢٨ .

٣٧- د. اسعد رزوق :المرجع السابق، ص٣٢٨ .

٣٨- Abba Eban: Ibid, P.P. 559.

٣٩- د.اسعد رزوق :المرجع السابق، ص٣٥٠-٣٥٢ .

٤٠- د. اسعد رزوق : المرجع السابق، ص٤٠٧ .

٤١- د. اسعد رزوق : المرجع السابق، ص١٩٠ .

٤٢- ووإيزمان : المذكرات ،ترجمة محمد رشاد الشهابي، ص٤٠ .

٤٣- د.اسعد رزوق : المرجع السابق، ص٩٨ .

٤٤- ناجي علوش :المرجع السابق، ص٦٦-٩١ .

٤٥–يغال آلون :انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي ،ترجمة عثمان سعيد ،مراجعة وتقديم ناجي علوش ،دارالعودة ،ص١٩ .

د .فضل النقيب :الاقتصاد الاسرائيلي في اطار المشروع الصهيوني، دراسة تحليلية .مؤسسة الدراسات الفلسطينية ،١٩٩٥ .

٤٦–يغال آلون :المرجع السابق، ص١٩ .

د .فضل النقيب : المرجع السابق،ص١٤ .

AHARON COHEN:IBID,P.P.276-249 –٤٧

٤٨–شيمون شيفر : كرة الثلج،ترجمة كميل داغر،دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٥ ،ص١٩ .

ود. فاضل البراك،مصطفى البارزاني –الاسطورة والحقيقة،ط/٢, ١٤١٠، ١٩٨٩ ،ص٢٥٤–٢٥٧, ٢٧٤ .

ويوسي ميلمان : أسرار الاختراق الاسرائيلي للسودان منذ الخمسينات، الدستور ، عمان : ١٩٩٧/٧/٢ .

٤٩– ليفيا روكاخ : دراسة مبنية على مقتطفات من اليوميات الشخصية لـ:موشي شاريت . ترجمة يسرى عادل صلاح .رابطة الجامعيين العرب الاميركيين ،١٩٨٣ ،ص٧١–٧٣ .

ولورا زيتران ايزنبرغ : عدو عدوي : لبنان في التصورات الصهيونية المبكرة (١٩٠٠–١٩٤٨) . رياض الريس للكتب والنشر. ١٩٩٧ .

٥٠–ليفيا روكاخ :المرجع السابق،ص٧٨ .

٥١– ليفيا روكاخ : المرجع السابق،ص٧٩ .

٥٢– ليفيا روكاخ :المرجع السابق،ص١٢٧ .

٥٣–ر .ك،كارانجيا :خنجر اسرائيل :دار دمشق،ص٥٧–٥٨ .

-٣-

إن قادة « دولة اسرائيل » كلهم يدركون طبيعة الصراع. ويعرفون أنه صراع مع الأمة العربية، ذات التاريخ العريق، والكثرة المتزايدة. ولذلك فهم يبنون استراتيجيتهم في كل الميادين على مواجهة هذه الحقيقة.

ولقد كتب موشى دايان، بعد حرب تشرين قائلاً: « إن انتصارنا العسكري، لم يُنْهِ الواقع السياسي المعادي الذي نعيش فيه، والذي نناضل ضده ». وأضاف: « وعلينا أن نتعلم ان نعيش وان نناضل في الواقع السياسي الصعب لهذه الأيام، ولكن واجبنا الرئيس أن نرتفع لمستوى رؤيتنا لأنفسنا، أن نصنع دولة رائدة، ومجتمعاً خلاقاً، يزدهر من ثمرات عمله الخاص، ودولة شجاعة، مستعدة للقتال دفاعاً عن نفسها، وشعباً ذا أفكار وَمُثُل، يناضل لتحقيق أهدافه القومية والتاريخية: في إحياء الامة اليهودية على أرضها »(١).

وقد عكس هذا ايغال آلون (٢)، وكل قادة « دولة اسرائيل ».

ولكن تحقيق هذا الهدف الكبير، يتطلب حل أربعة إشكالات كبرى.

الأول: بناء القوة العسكرية اللازمة، القادرة دائماً على الحرب، والتفوق فيها.

وهذا يتطلب ثلاثة أمور:

١ـ بناء جيش قوي، من المحترفين والمتدربين، يظل قادراً على القتال في اكثر من جبهة، وحشد قوات كبيرة نسبياً، قادرة ان تواجه قوات عربية متعددة في جبهات مختلفة.

٢ـ توفير الأموال للصرف على بناء هذا الجيش وتسليحه.

٣ـ امتلاك أسلحة متطورة، من خلال علاقات دولية نوعية، ومن خلال تطوير أسلحة محلياً، حيث أمكن، ومن ذلك امتلاك السلاح النووي والجرثومي الخ.....

ولكن هذا يتطلب تجميد قوى بشرية كبيرة، بالنسبة لدولة لا يزيد عدد سكانها عن أربعة ملايين ونصف، وقد يصل خمسة سنة ألفين [٣]، ما عدا العرب الذين يعيشون في المناطق المحتلة. كما يتطلب موارد اقتصادية كبيرة، لا تتوافر للكيان الصهيوني، الاّ من خلال المساعدات الخارجية. وهو ما لا يمكن ضمان استمراره، وزيادته.

ولذلك، فان حل هذا الاشكال يحتاج الى بدائل أخرى، تحل مشكلة الكثرة والقلة.

الثاني: حل مشكلة القلة في مواجهة الكثرة. ذلك أن «دولة اسرائيل» التي ستعد حوالى خمسة ملايين من السكان اليهود،سنة ألفين، ستواجه أمة من ثلاثماية مليون أو يزيد، وسيستمر هذا التزايد، خلال العقود الثلاثة القادمة. وحتى لو نجحت دولة العدو، في استقدام عشرة ملايين، سنة ألفين وعشرين، فستكون أمام حوالى ستماية مليون عربي، عدا المسلمين.

ولذلك قال آلون إن :« الزيادة السريعة في عدد السكان بالعالم العربي، هي بكل جلاء نقمة اكثر منها نعمة، لان ظروف الفقر المرعب، حيث تولد الاجيال من المقاتلين ضد اسرائيل تستبعد اي حل ملموس في نوعيتهم ».
ولذلك، فان الحل، يكون باتباع نهجين متوازيين:

اولهما :إثارة أوسع الحروب والفتن والأزمات الاقتصادية لاستنزاف السكان والاقتصاد، وتدمير البنى السياسية والاقتصادية. وينسجم هذا مع المخطط الامبريالي الاميركي.

وثانيهما: نسج علاقات مع فئات حاكمة متشرذمة متصارعة،ترى في العلاقات مع دولة العدو مكسباً. وهذا ما يحاول تحقيقه برنامج « السلام » الصهيوني- الاميركي الراهن.

ولكن هذا وذاك، لا يتحققان بدون الارتباط ببرنامج دولي، وحماية قوى دولية كبرى. ويساعد الوضع الدولي الراهن علي ذلك.

ولذلك يجب توقع المزيد من الفتن والحروب، وعمليات اكتساب فئات حاكمة، واستخدام القوى الدولية ذات المصلحة في ذلك كله.

الثالث- مواجهة التخلف بالتقدم. فالوطن العربي متخلف قياساً بأوربة المتقدمة. هكذا كان، عندما بدأت الحركة الصهيونية تنفيذ مشروعها، وهكذا ما زال، رغم مرور حوالى مائة عام.

ولقد بذلت جهود كبيرة للتطوير، وخاصة في مصر وسورية والعراق، ولكن هذه الجهود ما زالت قاصرة، لأن الوحدة العربية، التي تعطي لهذه الجهود إمكانيات نجاحها، لم تتحقق، ولأن الحروب المفروضة، والحصار المتواصل، لم يسمح لهذه الجهود ان تعطي كل ثمارها قطرياً.

ولقد كان العدو الصهيوني عاملاً رئيساً من عوامل عدم تحقيق الوحدة، ومن عوامل الاستنزاف التي فرضتها الحروب والفتن. هذا إلى جوانب عوامل القصور الذاتي والصراعات المحلية، واشكاليات التخلف.

وكان العدو يضع دائماً في اعتباره مسألتين:

الأولى :كيف يُحقق التقدم السريع في كل الميادين، من الاقتصاد الى الأسلحة.

والثانية: كيف يُبْقي العرب متخلفين.

واحتلت هذه الاستراتيجية مكانة خاصة في البرنامج الصهيوني. وقد تحدث عن ذلك إيغال آلون. وهو يرى أن الحصول على تفوق سياسي وعسكري حاسم، يحتاج الى :« احداث تطور اجتماعي واقتصادي وعلمي، ولان المجتمع الصهيوني المتقدم لا بُد من أن يزداد تقدماً،وأن تتسع الهوة بين المتقدمين والمتخلفين»(٤).

وهذا التفاوت يجب ان يستمر. ليستمر، التفوق. والزمن، ليس ضد دولة الاحتلال، كما يرى آلون :« وفي المستقبل القريب لن يكون ضدنا لمدة جيلين آخرين على الأقل»،لان هناك، من وجهة نظره: « صلة وثيقة بين التقدم الاجتماعي والتنمية من ناحية، والقدرة على استخدام الخبرة الفنية والعلمية السريعة للتطور من ناحية أخرى» .(٥).

وما يراه آلون، يراه القادة الصهيونيون الآخرون.

ولذلك، كان هناك عمل دؤوب لتطوير دولة العدو، في كل الميادين، وكان هناك عمل دؤوب لتكريس تخلفنا في كل الميادين.

هامش -٣-

١-Moshe Dayan:Story of My Life.An Autobiography. William Morrow And Company Inc. N.Y.1976 P.P.621.

٢-Yigal Allon:The Making ofF Israele Army. Valentine, Mitchell London, in assoeiation with Weidcn Feld and Nicol San,1970.

ويغال آلون :انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي،ترجمة عثمان سعيد، مراجعة وتقديم ناجي علوش ،دار العودة -بيروت ١٩٧١ .

٣-بلغ العدد حوالى خمسة ملايين ونصف ،حتى آخر تشرين الاول، سنة ١٩٩٥،منهم حوالى أربعة ونصف من اليهود. وكان العدد في نهاية ١٩٩٣ميلادية ٥,٣٢٧,٦٠٠، منهم ٤ر٨١٪ يهود و١٨,٦٪عرب. يراجع: صبري جريس وأحمد خليفة (تحرير):دليل اسرائيل العام، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٩٦،ص٤٩ .

٤-يغال آلون: المرجع السابق بالعربية ،ص ١٧٩-١٨٠ .

٥- يغال آلون : المرجع السابق، ص٢٤-٢٥ .

-٤-

إن « دولة اسرائيل » اليوم،ليست الفكرة الصهيونية، سنة ١٨٩٧، أو المشروع الصهيوني، بين ١٩١٧-١٩٤٧ . إنها دولة. ولقد نجحت الفكرة الاسطورية،ان تصبح مشروعاً، والمشروع أن يصبح دولة، حسب التخطيط الذي بدأ، مع نشأة الحركة الصهيونية، وتبلور مع المؤتمر الصهيوني الأول.

ولقد حققت هذه الدولة ما يلي:

اولا : هجرة ملايين اليهود. وهم حسب آخر نشرة إحصاء، يبلغون اربعة ملايين وخمسماية وثمانية وثلاثين ألفاً [1]،وما زالت الهجرة تتوالى. وقد قاد انهيار التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، وبعض دول أوروبة الشرقية، الى تصاعد موجة الهجرة في السنوات ١٩٨٩-١٩٩٥ .وستقود الاضطربات الدائرة في العالم الى المزيد من الهجرة.

ولما كانت الهجرة جوهر الفكرة الصهيونية، وأساس المشروع الصهيوني، فان بلوغ عدد المهاجرين الرقم المشار اليه، واستمرار الهجرة، يعني ان الحركة الصهيونية، ما زالت تحقق النجاحات.

ثانياً: بناء جيش قوى،كان قادراً، حتى سنة ١٩٤٧-١٩٤٩ أن يهزم القوى العربية النظامية وشبه النظامية. ولقد انتصر هذا الجيش في كل الحروب التي خاضها ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، ١٩٨٢، وحقق كل الاهداف التي

يريد : احتلال الأرض العربية المحددة في الخطة، تدمير الجيوش العربية المشاركة في القتال، حسب الخطة أيضاً، وبالسرعة المطلوبة، الدفاع عن حدود « دولة اسرائيل »، بنقل المعركة الى الأرض العربية، كما خططت قيادة هذا الجيش، وقيادات « دولة اسرائيل »[٢].

وتعتبر النجاحات الصهيونية نجاحات نموذجية، من بناء الجيش، الى النجاحات في الحرب.

ثالثاً : بناء دولة مستقرة، السلطة التشريعية فيها لمجلس نيابي، ينتخبه المجتمع الصهيوني، حسب القوائم والاقتراع الشامل، فكل الدولة دائرة واحدة،ويكلف رئيس الدولة الحزب الفائز بالانتخابات بتولي السلطة التنفيذية. ولم تفرض الاحكام العرفية، ولا صودرت الحقوق المدنية في« دولة العصابات » رغم الحرب والحصار، منذ قامت الدولة حتى الآن. ولم يغيّر من ذلك اغتيال رئيس الوزراء رابين. . . ولو ليوم واحد.

واستطاعت الدولة ان تبني اقتصاداً قوياً منافساً ومنتجاً، وأن تحرز تقدماً في الزراعة والتكنولوجيا الصناعية. واذا كانت هنالك من إشكالات، فانها أساساً ذات علاقة بطبيعة الدولة الاستيطانية، وبالحاجة الى تمويل الهجرة، وبمصروفات الحرب والدفاع[٣].

رابعاً : اقامة علاقات دولية تضمن الحماية السياسية والعسكرية والتمويل والامداد.

ولقد جاء ذلك كله، حسب التخطيط.

خامساً: بلوغ المرحلة الأولى، من فرض سلام الأمر الواقع على الدول العربية[٤]. وكان موضوع فرض سلام أمر واقع، يشغل بال القيادة الصهيونية، منذ ١٩٤٨.

ان هذه النجاحات زادت شعور جماهير العرب بالخطر، لان المواجهات أبرزت الوجود الصهيوني على طبيعته، وأظهرت مدى خطره، سواء على صعيد بناء قواه الذاتية،او على صعيد ارتباطه الدولي .وهو ما يجعل جماهير مصر، ترفض الاعتراف بسلام الأمر الواقع، رغم توقيع حكومة السادات مثل هذا السلام، منذ ١٩٧٧ . وهذا ما يحدث في الاردن.

وهذا ما يجعل حكومة العدو الصهيوني أكثر إدراكاً لطبيعة الخطر، وأكثر حرصاً، على ضمان ما حققته من نجاحات. وهو يتطلب مواصلة بناء جيش قوى ومستعد دائماً، وامتلاك أسلحة متطورة،كما يتطلب تمتين تحالف دولة العدو دولياً، وخاصة مع حكومة الولايات المتحدة الاميركية،ما دامت قيادة الدول الامبريالية

ولكن هذا وذلك لا يضمنان مستقبل العدو، إن لم يُعِدْ ترتيب الوضع العربي، لكسر شوكة الحركة القومية،وشرذمة الدول القطرية، وتكوين واقع قطري جديد، اكثر تصارعاً واشتباكاً من الوضع الذي أقامته اتفاقية سايكس -بيكو.

ولما كانت :«الكسارة الصهيونية» غير قادرة على احتلال اقطار كمصر والعراق وسورية واخضاعها، فان هذه المهمة، يُنفذها التحالف الدولي، بقيادة الامبريالية الاميركية.

وما حصل مع مصر، ما بين ١٩٥٥-١٩٧٤، وسورية ١٩٦٣-١٩٩٠، وليبيا ١٩٦٩ حتى الآن، والسودان والجزائر، كان مجرد تجارب في ميدان محاصرة طاقات الوطن العربي لمنع الاتجاه نحو الوحدة، ولتدمير القوى، واعاقة التقدم. ولكن الأمر ازداد خطورة،منذ ١٩٩٠، عندما بادرت حكومة الولايات المتحدة الاميركية، إلى حشد تحالف دولي لشن هجوم على العراق، ولفرض حصار على ليبيا، ومن ثم على السودان.

وهذا الاسلوب الجديد، يحقق البرنامج الامبريالي، كما يحقق البرنامج الصهيوني.

ولكن الخطر سيظل داهماً، ما لم تقسم الاقطار العربية الكبرى: مصر، السودان، الجزائر، المغرب، المملكة العربية السعودية، اليمن، العراق، سورية، وما لم تستنزف طاقات الوطن العربي البشرية، خلال حروب أهلية طاحنة،وتُدَمّر القواعد الحضارية التي قامت، خلال قرن من الزمان. وما لم يحصل ذلك، فان دولة العدو والمصالح الامبريالية، ستظل في خطر.

وهكذا، فان النجاحات الأولية التي حققتها الحركة الصهيونية، ما زالت جزئية، لأنها انتصارات مؤقتة ومحدودة على بعض الدول العربية، وليس على الأمة، ولأن جسم الأمة ما زال يتحفز للصراع، وما زال يملك طاقات وامكانات كبيرة لم تستخدم.

ويزيد من تخوف دولة العدو ما يلي:

اولاً: تراجع قوة الدول الامبريالية، لان بريطانيا وفرنسا، أصبحتا دولتين عاجزتين خارجياً، ولان حكومة الولايات المتحدة تعاني إشكالات داخلية

كبرى، وخاصة في ميداني الاقتصاد والحياة الاجتماعية. ولا تستطيع دولة العدو ان تضمن تدفق المساعدات الاقتصادية الكبيرة الى أمد طويل، بينما ستظل هذه الدولة بحاجة الى ذلك، ما لم « يُخضع » الوطن العربي، وتنفتح أمامها اسواقه.

ثانياً: تفاقم المشكلة العربية،من حيث تزايد عدد السكان، وهو كما ذكرنا، وازدياد المطالبة ببناء نظم قادرة، منسجمة مع ارادة جماهير ها، متجهة نحو الوحدة العربية، ونحو التنمية الاقتصادية الحقيقية. يضاف الى ذلك تطور القدرات العسكرية العربية، وا متلاك صواريخ بعيدة المدى، وأسلحة جرثومية، على طريق امتلاك أسلحة نووية. ثم بروز القدرة على مقاومة غير تقليدية طويلة المدى، كالمقاومة في فلسطين وفي لبنان.

وقد أعطت تجربة العراق في الحرب الطويلة مع ايران، وهي الحرب التي امتدت ثماني سنوات، وتجربة العراق في تطوير الاسلحة الصاروخية والجرثومية والنووية، ما يعتبر دليلاً على عبث استمرار التحدي الصهيوني، بالأساليب السياسية والعسكرية التقليدية السابقة.

وكانت حرب تشرين، بما عنته من تعاون عسكري عربي، ومن قدرة على المبادرة بالهجوم، ومن تحقيق انجازات عسكرية أولية، قد أحدثت هزة في المجتمع الصهيوني، وأنذرت بتطورات لا تحمد عقباها.

ولذلك، فان رجلاً مثل شمعون بيريز (Shimon peres)، يحاول أن يعكس فهم هذا الواقع، وهو يرى: « ان المزيد من الحروب، يعني المزيد من الضحايا، ولكن ليس المزيد من الحلول ». وأن: « الاحتفاظ بجيش حديث،

ومواصلة سباق التسلح، لا يدمر الاقتصاد فقط، بل يدعو الى عدم الاستقرار». ويحاول بيريز ان يقنعنا: « ان القضايا المركزية في الصراع العربي- الاسرائيلي، كانت في الماضي المشكلة الفلسطينية ». وهي الآن ليست كذلك من وجهة نظره. ان المشكلة الحقيقية الآن هي: « التهديد النووي ». وهناك مشاكل الآن، « لا تجدي معها الحلول العسكري السابقة ». « فاليوم، ليس هناك جواب عسكري للتهديد النووي. وليس هناك جواب عسكري للفقر والأصولية، وليس هناك جواب عسكري للارهاب الجذري. وليس هناك جواب عسكري للكوارث البيئية »(٥).

ولا ينسى بيريز أن يُعَرّج على الصواريخ البعيدة المدى، والرؤوس غير التقليدية. واذا كان الردع المتبادل، هو الذي يضمن عدم القيام بالضربة الأولى، كما سلكت القوى العظمى خلال الحرب الباردة، « فماذا يمكن ان يُفْعَل إذا كان العدو غير عقلاني » كأن يكون: « آية الله متعصباً، أو إرهابياً متحمساً، يستمد القوة والشجاعة، من رؤيا « سفر الرؤيا الآن »، والمستعد لأن يضحي بالعالم كله، اذا لم تُلَبَّ مطالبه »(٦).

وعليه: « فان اكبر الأخطار علينا اليوم، من اتحاد الاسلحة النووية، مع الايديولوجيا المتطرفة »(٧).

ولذلك، فان بيريز يدعو إلى البدء بسرعة(٨).

ويرى بيريز نقطة البدء في اعادة بناء فكرنا، ويضيف: « وهؤلاء الذين لا يريدون، ايديولوجياً أو سيكولوجياً، أولا يستطيعون، اعادة بناء فكرهم على ضوء الواقع الجديد، سيكونون غير قادرين على ضمان مستقبل آمن

لادهم. وبعد هذا كله، ما قيمة الأمن الذي يعيدنا فقط الى ميدان
ركة»[٩].

«والشرط المسبق للنجاح في سعينا للسلام والازدهار في الشرق
وسط، هو اختراق الحاجز السيكولوجي». وعلى الطرفين العربي
صهيوني: «ان يتعلما أن ينظر، كل منهما الى الآخر، كشعب- ان يفهم
ل منهما رغبات الآخر وشكوكه، آماله ومخاوفه»[١٠].

والسلام من وجهة نظر بيريز، يجب ان يبنى اقليمياً، أو لا يكون[١١].

وهذا كله، هو الذي يبني الشرق الاوسط الجديد [١٢].

ولكن بيريز هنا لا يريد أن يرى الحقائق التالية:

أولاً: أنه يتحدث باسم حكومة محتلة، احتلت أرضاً، وشردت شعباً،
ما زالت تفعل ذلك. وهي عندما تتحدث عن« كسر الحواجز النفسية» لا
تحدث عن الاحتلال الأساس، ولا عن وقف الهجرة، ولا عن وقف برنامج
تفوق والسيطرة، وبالتالي لا تتخلى عن برنامج الاستيطان، الذي يتوسع في
كل أنحاء فلسطين والجولان.

ثانياً: أنه لا يتحدث عن الارتباط بالبرنامج الامبريالي، ولا عن العمل،
ضمن اطار البرنامج الامبريالي لاخضاع الوطن العربي والعالم الاسلامي
تفتيتهما. ولما كان السلام الذي يتحدث عنه، لا يقوم إلاّ بالضربات
لعسكرية، والهيمنة السياسية والاقتصادية الامبريالية، وتجريد الوطن العربي
والعالم الاسلامي من كل سلاح، فانه يكتفي بالحديث عن السلام الاقليمي،
دون أن يذكر كيف سيقوم.

ثالثاً: أنه لا يتحدث عن البرنامج الصهيوني الذي كرسته الحركة الصهيونية، منذ ١٨٩٧، والذي يكرس مفهوم احتلال الأرض العربية وهزيمة العرب، وربط ذلك كله بوعد الله، وتحريم التوراة التعايش مع السكان الاصليين. ولا يشير بيريز إلى أن تحالفه الحاكم، لا يملك أغلبية نيابية، وان الليكود وقوى اليمين قوية. وان القوى التي قتلت رابين، يمكن أن تعطل أية خطوات لا تراها منسجمة مع برنامجها.

ثم إن بيريز لا يتحدث عن استراتيجيته وتكتيكه، لأنه، من حيث الاستراتيجية صهيوني، كما كان بن غوريون (١٨٨٦–١٩٧٣) وهرتزل وبيغن وشامير، ولكنه في التكتيك وريث هرتزل وبن غوريون، يرى استخدام الأساليب المتعددة، وانتهاج السياسات المرحلية، كما بينا من قبل. ومن المؤكد ان بيريز، سيكتب في مذكراته ما كتبه هيرتزل، وهو يرد على منتقديه، أو ما فعله بن غوريون[١٣].

واذا كان بيريز، لا يحدثنا عن الحركة الصهيونية وموقفها، وعن اليمين وموقفه، فاننا نرى هنا أن نبين موقف هذا اليمين الذي يمثل موقف بيريز الاستراتيجي، دون تكتيكه.

فما زالت الجماعات الاصولية الصهيونية القوية، تعتبر خريطة فلسطين الكبرى« أرض اسرائيل »، كما أشرنا سابقاً. وكما يقول يوئيل بن نون (Yoel Ben Nun) : « إننا لن ننسى« شرق أردننا »، ولكنا نعرف جيداً أن شعب اسرائيل ، في ظروفه الراهنة.... يستطيع بصعوبة أن يدمج أرض اسرائيل الغربية التي تقع الآن بين أيدينا (دون ان نتحدث عن اراضي نفتالي وأشر في

لبنان) . ان هذ ا من الصعب فهمه أو « بلعه »، ولكن « هذه هي كلمة الله »، واذا ما انتُقِد الرابين (جمع رابي) الذين يقولون ذلك، فعلى أرضية تكتيكية أساساً » .

« والنظرة السائدة داخل الحركة الاصولية اليهودية أن واجب هذا الجيل أن يؤَمِّن تأسيس السيطرة اليهودية الدائمة على اليهودية والسامرة وقطاع غزة والجولان » . والأراضي بين نهر الاردن والبحر المتوسط :« هي الحد الادنى الذي لا يقبل النقصان لتحقيق هدف الصهيونية . . » .« والمطامح لمد الحكم اليهودي على سيناء، أجزاء من لبنان، والكثير من الضفة الشرقية، يجب ألا تنسى، وقد يصبح ذلك من الناحية السياسية في يوم من الايام وارداً . وفي الوقت الراهن، فان العمل المباشر لتحقيق هذه الاهداف، يمكن ان يُؤجل، خلال بذل الجهد لتعزيز الحكم اليهودي غربي نهر الاردن » .

ان هذه ليست سياسة اليمين فقط، وهي سياسة حزب العمل وبيريز ورابين، وكل صهيوني .

ويدور حديث حول التخلص من العرب في الأرض المحتلة ١٩٤٨ ، وسائر الأرض المحتلة . وقد اقترح يوسف شابيرا الوزير بلا وزارة، في أواخر تشرين اول ١٩٨٧ علناً تهجير العرب :« من كل من اسرائيل والمناطق » بدفع« عشرين ألف دولار لكل عربي يرغب بالرحيل الدائم » . وقد أشار شابيرا الى تقرير أعَدّه حزبه لمطالبة الرابين في قطاع غزة والضفة الغربية بالاجابة على السؤال : « ما هو رأيك في هجرة الاغيار من البلاد » . وكانت إجابة هؤلاء :« ٦٢٪ . . علينا أن نرغمهم على ذلك بأية وسيلة تحت تصرفنا، وان ننظر

لذلك على انه تبادل سكان». وفضّل ١٣٪ تشجيع الهجرة الاختيارية. وقال ١٠٪ «هذا ليس الوقت لبحث المسألة».

وقد جرت حوارات أخرى حول التهجير[١٤].

ولذلك كتب ايان س لوستيك (Ian.S.Lastick) سنة ١٩٨٨، «وحتى اذا ما أمكن تشكيل تحالف حاكم، مؤلف من أحزاب، راغبة في قبول اتفاق مبني على مبدأ الأرض مقابل السلام، فان تنفيذ هذه السياسة، سيفجر معارضة قوية وواسعة، وسيطرح تحديات حقيقية لقدرة النظام النيابي على الاحتفاظ بنفسه».

وقد توقع السيد لوستيك ان تقود عملية كهذه الى أزمة، تتضمن: «مظاهرات متكررة، يقوم بها مئات الآلاف من اليهود، عنف ضد اليهود والعرب، تحديات للسلطة وشرعية الحكومة، وقرارات عديدة يصدرها الرابون، تعارض نوايا الحكومة، وبناء عشرات من المستوطنات الجديدة غير الشرعية، تهديدات بحرب أهلية، وتدفق مفاجيء ليهود المنافي المتعصبين قومياً، ومحاولات، كما جاء آنفاً للقيام بأعمال متهورة، كتدمير معابد المسلمين في القدس».

ويضيف المؤلف: «إننا حتى لو افترضنا رغبة الحكومة في استخدام اجراءات شديدة، واحتمال استخدام اجراءات لا ترحم ضد خصومها، فان النجاح لا يمكن ضمانه»[١٥].

وعليه، فان حديث بيريز عن السلام، لا يأخذ الوقائع والمعطيات لدى الطرفين بعين الاعتبار، لأنه لا يريد أن يأخذها، ولأنه يخطط، لتغيير أسلوب

التعامل التكتيكي مع العرب، بحيث يستطيع أن يهيأ لتطور « رؤى سلام » و« برنامج سلام ». و« قوى سلام » عندنا، تشق صفوفنا، وتضرب وحدتنا، وتعدنا لاستسلام شامل، في الوقت الذي تمسك فيه « دولة اسرائيل » بمقاليد الحرب والسلام.

واذا كان « تكتيكه » ليس موضوع اجماع، لدى جماهير المستوطنين الصهيونيين، فكيف يمكن ان تكون استراتيجيته موضع اجماع لدى العرب؟.

فماذا يعني هذا؟.

انه يعني ان الصراع سوف يستمر، وان رؤية نجيب عازوري لا تزال صحيحة.

ويعود ذلك الى أمرين:

الأول :أن « دوله اسرائيل » والحركة الصهيونية العالمية، ستظلان معنيتين بثلاثة أمور:

١- حمايه الوجود الصهيوني في فلسطين، ومنع أية تصفية له، أو اضعاف له، لأن في ذلك« كارثة يهودية »، وضربة للمشروع الصهيوني، يصعب تحملها أو قبولها.

٢- تطوير الدور الصهيوني على الصعيد العالمي، لضمان دور رأس المال اليهودي، وتطوير دور الوجود الصهيوني في الوطن العربي لضمان الدور الصهيوني العالمي.

٣-إضعاف العرب، من حيث وجودهم، لضمان عدم قدرتهم على محاصرة الوجود الصهيوني واضعافه، بَلْه تصفيته، واضعاف دور الحركة الصهيونية على الصعيد العالمي.

وهذا في كل الحالات يتضمن ضرورة تقوية الوجود الصهيوني، واضعاف العرب. والدول، التي تقوم على مبدأ القوة، تعرف لعبة القوة. ولعبة القوة تقوم على ان قوة طرف، تعني ضعف طرف آخر، ولا مجال لتعايش دولتين قويتين على أرض واحدة. فكيف اذا كانت احداهما غاصبة، وكان وجود احداهما ينتهك سيادة الأخرى، ويهدد وجودها؟.

الثاني: ان العرب، سيظلون معنيين بثلاثه أمور أيضاً، وهي:

١- تحقيق الوحدة وبناء القوة اللازمة لضمان تقدمهم وأمنهم، وهو ما يرعب دولة العدو، حتى لو امتلكت أسلحة نووية.

٢- تحرير أرضهم المحتلة، واقامة السيادة العربية على الأرض العربية، وتصفية كل آثار الاحتلال والتبعية، وهو ما يخيف« دولة العدو »، حتى لو كان بين « دول الطوق العربية »والعدو اتفاقات سلام، لان ميزان القوى العربي- الصهيوني يختل لمصلحة العرب.

٣- بناء المشروع العربي الحضاري.

وكل ذلك يهدد وجود دولة العدو السياسي والعسكري والاقتصادي، لان دولة العدو لا تقبل ان تكون« ولاية »أو « أقلية »، ضمن اطار وطن عربي

كبير، أو على حدوده: حتى لو قبل الجمهور العربي بذلك. وهو ما لا يبدو وارداً،بالنسبة للدولة، وإن كان لا يبدو غير طبيعي، بالنسبة للأفراد اليهود.

وعليه، فلا حل لدى دولة العدو، غير وجود وطن عربي منقسم متصارع، يتأخر بدلاً من ان يتقدم، ويضعف، بدلاً من ان يقوى.... ويأتي « مشروع السلام » الذي يقدمه ساسة العدو لتحقيق هذه الغاية. لان مواجهة عدو تُوَّحد وتحفز، والتنافس على مكاسب السلطة، يُقسِّم ويدفع الى الاقتتال. ويحاول العدو أن يوهمنا أن الحرب انتهت ليسهل عليه تفجير التناقضات الداخلية التي رأينا نذرها مع طرح« مشاريع السلامَ » في لبنان والجزائر ومصر والعراق، وحتى في فلسطين. وما سنراه في « الشرق الاوسط الجديد » أعنف وأوسع ان لم تتحد الأمة للمواجهة.وسيستمر الصراع، حتى تنتصر احدى القوتين على الأخرى. والعرب، هم المأهلون، بسبب تفوق امكاناتهم البشرية والمادية تفوقاً لا يُضاهى، ولأن دولة العدو، لا تستطيع أن تعتمد على الدعم الامبريالي الدولي وغطرسة القوة الاميركية طويلاً.

هامش -٤-

١- هذا ما ذكرته الصحف، أما كتاب حقائق عن اسرائيل، الصادر عن مركز الاعلام الاسرائيلي، سنة ١٩٩٥، فيذكر ان عدد السكان يزيد عن خمسة ملايين، وان اليهود اكثر من اربعة وغير اليهود تسعماية وتسعون ألفاً. ص ٩٣.

٢-Moshe Dayan :Ibid P.P. 609-٦٢١

وصبري جريس وأحمد خليفة (تحرير) :المرجع السابق،ص٢٨٧-٢٩٤.

٣-د. فضل النقيب :الاقتصاد الاسرائيلي في اطار المشروع الصهيوني. دراسة تحليلية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٩٥.

٤-يغال آلون : المرجع السابق بالعربية :ص٣١.

٥-Shmon Peres :The New Middle East .Henry Holt And Company .N.Y.1993,P.P.80-81

٦-Shimon Peres :Ibid P.P.82-83

٧-Shimon Peres :Ibid P.P.83

٨-Shimon Peres :Ibid P.P.83

٩-Shimon Peres :Ibid P.P.76

١٠-Shimon Peres :Ibid P.P.76

١١-Shimon Peres :Ibid P.P.78

١٢- Shimon Peres :Ibid P.P 49-60

١٣- Shimon Peres :Ibid P.P.148

١٤- Ians. Lustick: For The Land and The Lord, Council on foreign Re-lation. 1988. P. P. 179.

١٥- Ian.S.Lustick: Ibid. P.P. 181-182.

-٥-

والآن، قد يقول قائل: ما معنى الحديث عن استمرار الصراع في الوقت الذي تُوَقّع فيه «اتفاقات سلام»، وتبدأ عملية تطبيع بين أطراف رئيسية في الصراع: الحكومة المصرية، قيادة عرفات، الحكومة الأردنية، كما تشارك أطراف عربية أخرى: حكومات عمان وقطر والبحرين، وتونس والمغرب وموريتانيا، وهناك مفاوضات تتعثر مع حكومتي سورية ولبنان، ولكنها مفاوضات مستمرة؟.

ولا شك أن ما يجري يستحق أن نتوقف عنده، لا لأنه نهاية، فهو بداية، ولكن لأنه يعكس خللاً في موازين الصراع، لمصلحة العدو. ذلك ان العدو، حصل بالاتفاقات التي وَقعها مع الأطراف المعنية، على كل ما طلبه في دعاواه حتى الآن، ومن ذلك:

١-الاعتراف به، وباحتلال فلسطين، دون قيد أو شرط.

٢-فتح الحدود لتدفق الاشخاص والسلع، ولقيام الشركات، وتبادل الخبرات الخ.... والحدود التي ما زالت قائمة، ناتجة عن خشية الحكومات من نقمة جماهيرها، لان الاحتلال، ما زال قائماً في الجولان وجنوب لبنان والضفة الغربية وغزة، ولأن حكومة سورية لم توقع بعد.

٣- تحقيق ما يُسّمى السلام بالشروط التي أعلنها العدو سلفاً، ومنذ سنين طويلة: مباحثات مباشرة، وبدون تدخل دولي، التنازل عن أية قرارات دولية سابقة، مباحثات ثنائية، بين حكومة العدو وكل حكومة عربية على حدة. ولذلك ذهبت كل الوفود الى مدريد، وتمت جلسة خطابات مشتركة. ثم توزعت الوفود الى اجتماعات ثنائية، وانقسم الوفد الاردني الفلسطيني الى وفدين أردني وفلسطيني. وفي الوقت الذي كان فيه الوفدان يتفاوضان، كانت هنالك مفاوضات سرية أخرى، أنتجت اتفاقيتين مختلفتين، ليس لهما علاقة بمفاوضات مدريد.

وسواء في اتفاق قيادة عرفات مع العدو، أو اتفاق الحكومة الأردنية، أو في الاتفاق مع الحكومات العربية الأخرى، لم يقدم العدو أي تنازل، لأن «الحكم الذاتي» بشروطه، لم يكن خارج خطته، ولأنه لم يلتزم، حتى بتنفيذ جزء من القرارات الدولية (ونحن بالطبع لا نوافق عليها) التي كانت الحكومات العربية ترهن كل اتفاق بتنفيذها. وهكذا فالانسحاب من الاراضي العربية المحتلة، لم يتم. فهناك إعادة انتشار في الضفة الغربية وغزة. وهناك احتلال في الجولان وجنوب لبنان. و هناك أراضٍ مؤجرة في الباقورة، وآبار مياه ما زالت تضخ في جنوب الأردن لمصلحة العدو. وقضية اللاجئين، مرتبطة بمفاوضات بلا أسس ولا شروط، وقضية النازحين محالة الى لجنة بلا أسس ولا شروط أيضاً. أمّا مواضيع القدس والمستوطنات، فهي ستبحث في مفاوضات الحل النهائي، وكذلك موضوعا السيادة والدولة. ولكن الاعتراف بدولة «اسرائيل» وأمنها، وفتح الأبواب لها، وتصفية حساب السيادة والأرض

والشعب، فقد تمّ سلفاً، وبلا شروط، غير الاعتماد على «حسن نية» راعي عملية السلام الأوحد، حكومة الولايات المتحدة الاميركية [1].

٤- انتزاع مكاسب وضمانات دولية، ومن ذلك:

أ- إعادة العلاقات السياسية بين حكومة العدو وكل الحكومات التي قطعت علاقاتها معه، بسبب عدوانه على الأرض العربية. وقد ارتبطت عملية إعادة العلاقات بتطوير التعاون السياسي والاقتصادي والعسكري، مع حكومات كثيرة :أبرزها الصين وفيتنام وكثير من الحكومات الأفريقية.

ب- إلغاء قرار ربط الصهيونية بالعنصرية، وهو القرار، رقم ٣٣٧٩، الذي اصدرته الجمعية العامة، سنة ١٩٧٥، وبتأييد اثنين وسبعين، ومعارضة خمسة وثلاثين، وامتناع اثنين وثلاثين، والغي بتاريخ ١٦/١٢/١٩٩٢، وبتأييد ١١١ ومعارضة ٢٥، وامتناع ١٣ [2]. وكان القرار الأول تاريخياً وذا خطورة كبيرة عالمياً، فجاء القرار الثاني رداً على الأول، وعلى الموقف العربي والآسيوي الافريقي العالمي الذي ربط الصهيونية بالعنصرية [3].

جـ- التزام حكومة الولايات المتحدة الاميركية بخطة مساعدات أمنية وسياسية واقتصادية وعسكرية، بدأت ولم تتوقف بعد. إذا كان المعلن منها كبيراً وخطيراً، فكيف اذا عرفنا ما هو سري. ويكون السري عادة هو الأخطر، وكان من المعلن:

جـ-١ : عشرة مليارات، سُمّيت ضمانات القروض[٤].

جـ-٢ : عدد من الاتفاقات الأمنية والمساعدات الخاصة[٥].

جـ-٣ : إعادة بناء الأمن الاقليمي في المنطقة [٦]. وهو ما يجري العمل لتحقيقه، منذ محاصرة عبدالناصر وتصفية وجود الناصرية في الحكم في مصر، إلى شن الهجوم الامبريالي الدولي على العراق[٧].

والعدو الصهيوني لم يقبل، بما يسميه عملية السلام، إلاّ لأنه وجد الوضع ملائماً على الاصعدة التالية:

اولاً: على الصعيد الدولي، كان الاتحاد السوفياتي، قد انهار، منذ ١٩٨٩، وانتهت الحرب الباردة، وأصبحت حكومة الولايات المتحدة الاميركية، رأس النظام العالمي، بلا منازع. وحكومة الولايات المتحدة الاميركية، حاضن« دولة اسرائيل» وحاميها، بلا حدود [٨].

ثانياً :وعلى الصعيد العربي، كانت قد حدثت التطورات التالية:

١-انتهاء مرحلة الاعتماد على الاتحاد السوفياتي، من حيث التسليح والمساعدات الاقتصادية، والامداد العسكري والتدريب، وتقديم الدعم المادي والمعنوي، في مواجهة العدوان الصهيوني، والابتزاز الامبريالي -الاميركي.

٢- ضرب قوة العراق ومحاصرته، وتعطيل قدراته.

٣- جرّ الحكومات العربية، سواء كانت موافقة على خطة مسالمة العدو أو لم تكن، إلى مؤتمر لما سُمّي السلام، في مدريد سنة ١٩٩١.

٤- انتقال قيادة م. ت. ف الى المفاوضة والاعتراف، بلا شروط، والتعامل مع العدو، بلا قيود، وتهديم بنية المنظمة التي أُعْتُمِدَت منظمة تحرير، سنة ١٩٦٤[٩]. وصحيح أن هذا تم بالتدريج، وعلى مراحل، ولكن الانتقال من الدعاوى الى العمل، أحدث آثاراً سلبية في الموقف القومي العربي، لم تُرَمّمهُ عمليات حماس والجهاد الاسلامي.

٥- استفحال التناقضات بين الحكومات العربية: سورية -العراق، مصر -السودان، الجزائر- المغرب، قطر -البحرين، الكويت -العراق، واحتدام التناقضات داخل الأقطار العربية : حكومة مصر والحركات الأصولية، الجزائر وجبهة الانقاذ الاسلامية، تونس وحركة النهضة، العراق وقيادات الحركة الكردية والمعارضة الخارجية العراقية. وبالاضافة الى ذلك، هناك الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

في مثل هذه الأوضاع، قِبَل العدو أن ينخرط في «محادثات سلام»، وأن يوقع اتفاقات، تؤمن له مطالبه، وهو بذلك، أستطاع أن يستثمر اللحظة المناسبة، ليحقق ما طلبه في الماضي. وقد تحقق بلا شروط، وبلا تضحيات؛ وليبدأ تحقيق متطلبات «السلام الدائم والشامل».

وهذه المتطلبات تتضمن:

أولاً: بقاء «دولة اسرائيل» «القوة العظمى» فيما يسمى «الشرق الأوسط»، القادرة على الحيلولة، دون بروز أوضاع تهددها. وهذا يعني ان

تظل:

١-قوة عسكرية مؤهلة، وجاهزة لهزيمة أية قوى عربية، أو عربية اسلامية مجتمعة، وعلى نحو اكثر فعالية، من حربي ١٩٦٧، و ١٩٧٣.

وكان يهم العدو أن يملك من القوى العسكرية، ما يضمن الانتصار دائماً. وهو ما حققه، سنة ١٩٦٧، ١٩٧٣، وان كان الوضع أصعب في حرب تشرين، والخسائر أكبر كثيراً. ولذلك، فان الخطة، صارت بعد حرب تشرين، تعتمد التطور النوعي في القوات والأسلحة. ولقد كتب دايان، بعد حرب تشرين، يقول: « وعليه، فان الطريقة التي يجب أن تضمن بها اسرائيل ميزان قوى ضد العالم العربي، الذي تنمو قوته بسرعة غير عادية، تكمن في تطوير نوعية أسلحتها، هذه النوعية التي تضمن أن تكون أية محاولة عربية لتدمير اسرائيل، تتضمن حتماً تدمير المهاجمين »[١٠]، وهذا يعني تطوير مختلف القوات والأسلحة، بما في ذلك الأسلحة الكيماوية والجرثومية والنووية.

ويعمل العدو على ذلك، ومنذ البدء، بكل الوسائل، وبأقصى ما يمكن من السرعة. وفي الوقت الذي يعلن فيه شمعون بيريز: « أن لاجواب عسكرياً اليوم للتهديد النووي »[١١]، يواصل العمل، على تعزيز ترسانته النووية، وهذا مُجْمَع عليه عالمياً، وتطوير كل أسلحته. وهذا ما تفعله المؤسسة السياسية والعسكرية الصهيونية. وتعتبره الضمان الاول للبقاء والانتصار.

٢- قوة سياسية واقتصادية وعلمية فعّالة، تلعب دوراً فعّالاً في الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية الدولية، وخاصة في بلدان « العالم الثالث »، وتظل موضوع احترام وحماية دولياً.

٣- قوة جذب ليهود العالم، سواء باستدراجهم للهجرة، أو باستقطابهم للتعاون الفعّال في كل الميادين لخدمة مخططاتها.

٤- قوة ذات دور نوعي، على صعيد الوطن العربي، اولاً، والعالم الاسلامي ثانياً، والعالم الثالث، ثالثاً، لتستطيع أن تضمن التأييد الاميركي، والامبريالي، وأن تحصل على المساعدات والأسلحة والدعم الذي تريد.

ولكنها لتبقى كذلك، يجب ان ينسجم دورها مع الدور الامبريالي الاميركي، ومع متطلبات رأس المال العالمي، في هذا الوقت من نهايات القرن العشرين، وبداية القرن الحادي والعشرين.

وهذا الحرص لا يختلف عن حرص الحركة الصهيونية على الارتباط مع حكومة بريطانيا، منذ القرن الماضي، والبحث عن دور بالتنسيق معها، واكتساب القوة، من خلال «التكامل» مع القوة العظمى الأولى.

ويجاهر قادة الحركة الصهيونية، في الكيان الصهيوني، أو في العالم، بأهمية مثل هذه العلاقة وضرورتها، كما كان هرتزل يفعل، بالنسبة لحكومة بريطانيا. إن هذه العلاقة ركن أساس في سياسة الحركة الصهيونية و« دولة اسرائيل »[١٢].

ولذلك، فان المنظمة الصهيونية العالمية، حرصت على تطوير فعالياتها ونشاطاتها، في الولايات المتحدة الاميركية، منذ الأيام الأولى للحرب العالمية الثانية. وقد قامت المنظمات الصهيونية الفعالة ومناصروها في الولايات المتحدة الاميركية، خلال الحرب العالمية الثانية «بحملة مكثفة وناجحة جداً،

لتوليد تأييد أميركي لهدفها في (إقامة) دولة يهودية منفصلة في فلسطين. وقد جَمَعت ملايين الدولارات في الولايات المتحدة لتأييد القضية الصهيونية، وأقرت مجالس الدولة التشريعية قرارات، تدعو الرسميين في واشنطن، أن يقبلوا المطالب الصهيونية، وزكّا السياسيون في كل من الحزبين. الكبيرين على نطاق واسع، الأهداف الصهيونية، وقادت مجموعات الضغط في واشنطن وعبْر البلاد على اتساعها حملة لكسب الأنصار للبرنامج الصهيوني. وكان من نتيجة ذلك ان الولايات المتحدة حلت محل بريطانيا العظمى وصارت مركز الدعاوى الصهيونية»(١٣).

وتواصل ذلك، بعد الحرب العالمية الثانية، وحين تخلت حكومة بريطانيا عن مسؤولياتها، بموجب صك الانتداب على فلسطين، «اتخذت الولايات المتحدة الاميركية، اكثر من أية أمة أخرى، المبادرة في الأمم المتحدة «لتقسيم» فلسطين، وخلق دولة اسرائيل»(١٤).

ولم يكن كل ما فعلته حكومة الولايات المتحدة الاميركية، حتى منتصف الخمسينيات كافياً، ولذلك، فقد طرح موشي شاريت(Moshe Sharett) سنة ١٩٥٥ فكرة عقد معاهدة دفاع مع الولايات المتحدة على أنها :«عقيدة مركزية» لسياسة حكومته(١٥). ورغم أن موشي شاريت لم يكن يعرف ماهي إمكانية تحقيق هذا الهدف، إلاّ أنه كان يعتقد بأنه يستحق توظيف كل الجهود من اجله. وكان يرى فوائده :«أنه يضمن أمننا، من خلال معاهدة متبادلة، إنه سيقوينا في علاقتنا بالدول العربية، إنه سيساعد السلام، انه سيزيد قيمتنا في عيون العالم، إنه سيوفر حافزاً لاستثمار رأس المال، إنه سيكون رسالة لليهود»(١٦).

ومنذ ١٩٥٧، وطرح نظرية الفراغ في الشرق الاوسط، وحكومة الولايات المتحدة الاميركية تلتزم بدعم سياسي وعسكري واقتصادي غير محدود، لـ « دولة اسرائيل ». ولقد أُعتُبرَت « دولة اسرائيل » « الرصيد الاستراتيجي » (Strategic Asset) للولايات المتحدة الاميركية. ورغم تحذيرات خبير مثل جورج كينان(George Kennan). وكان كيان يرى أنه: « ما من سبب للأمل في أن يخمد النزاع بين اليهود والعرب سريعاً ». ولقد: « تشكك كينان في أن تكون الدولة اليهودية المقترحة قادرة أن تقوم بنفسها ». وكان كينان يخشى ان يقود ذلك الى الاضرار بمصالح الولايات المتحدة الاميركية (١٧).

ورغم ذلك، فقد استمر الدعم، وتحول الى التزام، لا بالدفاع عن أمن « دولة اسرائيل » فقط، بل بالاصرار على انتصارها، وتحقيق أهدافها، كما حصل في حرب ١٩٧٣. وقاد هذا الى أن يكتب استاذ اميركي: « إن ارتباط اسرائيل بتحديد المصالح القومية الاميركية في الشرق الاوسط، مع الاعتقاد بأن في تسليح إسرائيل ومساعدتها إلى أبعد مدى (إضفاء الشرعية على أهداف الدولة اليهودية في تحقيق « اسرائيل الكبرى »)، ما يعزز المصالح الحيوية للولايات المتحدة، أنتج سياسة، بلغت من سوء التوجيه ما بلغته تلك السياسة التي شملت فيتنام، والتي كانت تحتمل من النتائج المأساوية اكثر كثيراً من كارثة جنوبي شرقي آسيا »(١٨).

ونحن اليوم أمام علاقة فريدة من نوعها بين « دولة اسرائيل » وحكومة الولايات المتحدة الاميركية، جعلت استاذاً اميركياً بارزاً يقول: « إن التحالف بين الولايات المتحدة واسرائيل، يبقى في أساس سياسة الولايات المتحدة، بسبب ديموقراطية اسرائيل وقوتها العسكرية »(١٩).

ومع ذلك، ورغم كل ما قدمته حكومة الولايات المتحدة الاميركية من معونات ومساعدات ومواقف لمصلحة «اسرائيل»، فإن بيريز رئيس وزراء العدو، ما زال يطالب بعقد معاهدة دفاع علنية [٢٠].

وها هي «دولة اسرائيل»، وكما توقع كينان، مع قيامها «ترسل ممثليها... لطلب السلاح والمتطوعين والدعم المالي، في الولايات المتحدة..» [٢١].

وهكذا، فان هذا الحرص الصهيوني على الالتجاء لحكومة الولايات المتحدة الاميركية، وإشراكها في معارك ما يسميه الطرفان الصهيوني والاميركي «الشرق الأوسط»، يقود الى ابتلاء العرب بالمزيد من التدخل الاميركي لمصلحة أمن «دولة اسرائيل» التي لا حل لمشكلة امنها، حتى لو اشتركت كل القوى العالمية.

وهو ما يحتم احتدام الصراع العربي- الاميركي، وتكبيد العرب والاميركيين خسائر كبرى، وعلى مدى طويل لِضَمان أمن دولة، لا مجال لضمان أمنها.

وصحيح أن رؤية مصالح الولايات المتحدة الاميركية في الوطن العربي، وما يُسمّى الشرق الاوسط، هو الذي يدفع حكومة الولايات المتحدة الاميركية، الى تحديد سياستها، ولكن وجود«اسرائيل»، يدفع الى تفاقم شكل الدور الاميركي لسببين:

الأول: وجود اللوبي الصيهوني في الولايات المتحدة الاميركية، والدور الذي يقوم به في تحديد السياسة الاميركية. وهذه ما يؤكده الدارسون.

ولذلك كتب سيسل قد كراب (Cecil V. Crabb, J.r.)، :« وحين وسع الاتحاد السوفياتي مساعدته العسكرية للدولة العربية، وقعت الولايات المتحدة، تحت ضغط شديد، من اسرائيل وأصدقائها في الكونغرس والرأي العام الاميركي، للمحافظة على التفوق العسكري الاسرائيلي، ببيع تل أبيب طائرات فانتوم، ومعدات عسكرية حديثة أخرى » [٢٢]. إن دراسة دور هذا اللوبي جديرة باهتمام كل عربي، وكل معني بدراسة سياسة الولايات المتحدة الاميركية، لان له تأثيره الكبير في الحياة الاميركية، وتحديد سياسة الحكومة، وتوجهات المجتمع، ذلك أن :« وجود جماعة فعّالة ملتزمة التزاماً شديد العاطفية من الافراد المؤيدين لاسرائيل في الولايات المتحدة، قَدّم لاسرائيل ميزة عظيمة في جهدها لكسب قلوب الاميركيين وعقولهم »[٢٣].

الثاني: الدور الذي قررت أن تلعبه « دولة اسرائيل » في الوطن العربي والعالم الاسلامي، وخاصة في الدول المحيطة بالوطن العربي. وهو دور رأت فيه حكومة الولايات المتحدة الاميركية حافزاً لمزيد من التدخل، والمشاركة في تنفيذ البرنامج الصهيوني. وبات ما تعتبره « دولة اسرائيل » خطراً على أمنها، يجري التعامل معه على انه خطر حقيقي على أمن الولايات المتحدة الاميركية.

إن هذا « الاندماج الكامل » بين الموقف الاميركي والصهيوني، جعل العرب وتقدمهم ووحدتهم موضوعاً أمنياً صهيونياً واميركياً، وجعل ما يُهدد « أمن اسرائيل » يهدد أمن الدولة الاميركية. ولما كان أي تطور ايجابي في الوضع العربي، حتى التنسيق بين دولتي سورية ولبنان، خطراً على العدو

الصهيوني، وهوخطر بلا حدود، من منظور الأمن الصهيوني، القائم على الهوس المطلق، فان ذلك، وهو لا يمثل اي خطر على الأمن الاميركي، يصبح خطراً يهدد مصالح الولايات المتحدة الاميركية، وأمن مواطنيها.

ثانياً: بقاء العرب ضعفاء دائماً. وهذا الضعف لا يتعلق بالأسلحة فقط، انه يتعلق بوحدتهم وتطورهم وزيادتهم السكانية ،وعلاقاتهم مع دول الجوار، وعلاقاتهم العالمية.

ولما كان الموضوع واسعاً، ويحتاج الى دراسات مفصلة، فإننا هنا سنكتفي بمناقشة قضايا رئيسة. ومن ذلك:

١ - قضية الوحدة العربية. إن تحقيق الوحدة العربية، ينقل العرب من التشرذم والتخلف والضعف، الى الوحدة والتقدم والقوة. ولذلك، فان الحكومات الامبريالية، كانت دائماً مع التجزئة والمزيد من التجزئة، ولم تكن يوماً مع الوحدة. وهذا ما قاد الى استنفار كل الحكومات الامبريالية، عند اعلان وحدة مصر وسورية، سنة ١٩٥٨. وزاد الاستنفار، عندما قامت الثورة في العراق، في العام عينه، وأصبح انضمام العراق وارداً (٢٤). وكان موقف العدو الصهيوني آنذاك اكثر استنفاراً وذعراً. وكان هذا الذعر قد عبّر عن نفسه مع انفجار الثورة في لبنان، بمبادرة حكومة الولايات المتحدة الاميركية لارسال قواتها في الرابع والعشرين من تموز ١٩٥٨، لمواجهة الموقف هناك.

وكتب بن غوريون، بعد ثلاثة أيام من إعلان إرسال القوات الاميركية إلى لبنان رسالة شخصية الى الرئيس ايزنهاور: «معبراً عن قلقه العميق على مستقبل الاردن ولبنان والعربية السعودية. فهي في خطر الوقوع في يديّ ناصر، كما هي حال ليبيا، وحتى ايران»[٢٥].

ولم يكن هلع القيادة الصهيونية في تل أبيب، وعلى رأسها بن غوريون خافياً. «وكانت نظرة بن غوريون في حينه متأثرة بوضوح بنجاحات الحركة الناصرية في العالم العربي، وخاصة بتكوين الجمهورية العربية المتحدة..»[٢٦].

ولذلك، فان بن غوريون نصح: «بأن تمتنع اسرائيل عن اي رد فعل في حينه. ولكنه رأى، وبالنظر الى الخطر المتنامي على وجود اسرائيل، أن عملية تعبئة سريعة كانت حاسمة»[٢٧].

ومع ذلك، فان بن غوريون لم يكتفِ بذلك، كما سنرى.

ولقد استمر هذا الموقف، وما زال قائماً، وزادت قناعة العدو الصهيوني، بعد حرب ١٩٧٣، والزيادة السكانية العربية الهائلة التي برز خطرها، وعلى نحو كبير، منذ ١٩٧٣ أيضاً.

وبالمقابل، فان المخطط الصهيوني، لا يقوم على منع تحقيق الوحدة فقط، بل على إثارة اوسع الانقسامات والنزاعات، واستنزاف الطاقات البشرية والمادية في فتن وحروب أهلية، وهو ما أشرنا اليه سابقاً. ولم يختلف هنا شاريت عن بن غوريون، أو جولدا مئير عن شامير، أو بيغن عن رابين.

٢ـالعلاقة مع دول الجوار. إن الدولة الصهيونية، والحركة الصهيونية من قبل، كانت معنية بأن تخضعنا، عبْر توظيف علاقاتها بالقوى الدولية العظمى، من جهة، وعبْر بناء علاقات مع دول الجوار، لتفرض الحصار علينا، وتنهشنا من كل الاتجاهات.

وهذا ما دعا بن غوريون الى التفكير بـ:« حلف المحيط » أو الحلف المحيط. وأجرى اتصالات مع حكومات اثيوبيا وايران وتركيا، وكانت كلها تخشى نمو نفوذ عبد الناصر، وتصاعد الحركة القومية. وقد كتب بن غوريون في ذلك الى الرئيسين ديغول(De Gaulle) وايزنهاور(Eisenhower). وجاء في هذه الرسالة: «إن جهودنا قد لاقت نجاحاً، واذا نظرت حكومتكم الى هذه المحاولة بعين الرضا، فان ذلك سيساعد كثيراً، وسيصبح عاملاً هاماً». وأضاف الى النص الفرنسي: «إن هذه المهمة، كما أشعر، ذات فائدة عظيمة لفرنسا، ايها الصديق. وفي الحقيقة، فإنه يحلو لي ان أفكر أن نجاحها، سيسهم في حل المشكلة الجزائرية، كما سيسهم في توثيق الروابط بين فرنسا وتونس ومراكش». وأضاف بن غوريون في رسالته الى الرئيس ايزنهاور:« إنني لا أتحدث عن رؤيا بعيدة. إن المراحل الأولى من هذه الخطة، قد لاقت نجاحاً لتوها. ولكن هناك أمران يعتمدان على الدعم الاميركي: المساعدة السياسية والمالية والمعنوية، وترسيخ الشعور في ايران، وتركية واثيوبيا ان جهودنا تحظى بموافقة الولايات المتحدة »[٢٨].

وحين سقط النظام الملكي في بغداد، رأى بن غوريون ضرورة الاتصال بحكومة بريطانيا، فاستدعى السفير البريطاني وأبلغه:« أن على بلديهما ان ينسقا سياساتهما الشرق اوسطية، وأن يتعاونا في كل الحقول ». وأضاف بن

غوريون :« إنه، وبالنظر الى النكسة في العراق، فانه من مصلحة بريطانيا ان تزود اسرائيل بالسلاح »[٢٩].

وقد استجابت حكومتا بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية، أما ديغول فأرسل جواباً غير ملزم[٣٠].

وظل هذا الخط خط القيادات الصهيونية، حتى عندما انهار نظام الشاه، وسقط نظام هيلاسيلاسي. وها هو التعاون الصهيوني-التركي، وبعد توقيع اتفاقات ما يُسمّى السلام مع حكومات مصر والاردن وقيادة م. ت. ف، يبرز من جديد، وفي جميع الميادين.

وما زالت هذه السياسية سياسة القيادة الصهيونية في الكيان الصهيوني وفي العالم. وهناك علاقات تنمو مع الدول الافريقية المحيطة بالسودان، والممتدة على حدود ليبيا وتونس والجزائر وموريتانيا [٣١]. كما أن هناك مساعي لاقامة علاقات مماثلة للعلاقة مع تركية، ومع أرمينيا، وجمهوريات الاتحاد الروسي، والهند، ومحاصرة باكستان وايران واخراقهما.

ويحاول هذا « الحلف المحيط »أن يستفيد من أمرين:

الاول: وجود خلافات ونزاعات وإشكالات تاريخية، مع دول الجوار. فهناك مشاكل خلاف الحدود مع تركية وايران، ووجود أراضٍ عربية ومواطنون عرب في الإسكندرون وجزيرة بن عمر. وهناك الأرض ومواطنون عرب في الاحواز والجزر الثلاث التي تحتلها حكومة ايران. ثم هناك صراع الادوار مع حكومات تركية وايران والجوار الافريقي. وصراع الادوار هذا تاريخي، منذ أيام الآكاديين، والفراعنة. وقد حاولت الحكومات الامبريالية ان تستفيد من

كل اسباب التناقض والتنافر، منذ اوائل عهد الاستعمار الحديث. ولم تستطع الحكومات العربية ان تعالج هذه الإشكالات معالجات مدروسة وحريصة على الانتقال من التنافر الى التعاون. ومن أسباب ذلك، أوضاع العرب المعاصرة، والتدخل الامبريالي، واستعداد حكومات دول الجوار وقياداتها ان تستغل الاوضاع العربية لاحتلال أراضي العرب، ودخول «تحالفات» معادية لهم.

واذا كانت حكومة العدو الصهيوني، قد وجدت أرضاً خصبة لدى بلاط الشاه، وفي أيام الحكم الملكي في العراق، قبل ١٩٥٨، فان الحرب العراقية - الايرانية ١٩٨٠-١٩٨٨ أعطت للعدو الصهيوني فرصة للدخول عبر الأسلحة. وها هو بيريز يعلن «تحالفه» مع حكومة تركية سنة ١٩٩٦. وقد أكمل نتنياهو، رئيس الوزراء الذي خلف بيريز في انتخابات أيار ١٩٩٦ مهمة تطوير العلاقات الاسرائيلية- التركية، لتبلغ مستوى الحلف المعلن، في هذه الأيام. (يراجع: د. جلال عبد الله معوض: عوامل وجوانب تطور العلاقات التركية- الاسرائيلية في التسعينيات. شؤون عربية، مارس / آذار ١٩٩٧، العدد ٨٩).

وهناك جهود صهيونية، منذ الخمسينيات لاقامة علاقات مع اكراد العراق وزنوج جنوب السودان، وقد حققت نتائج كبيرة، منذ اوائل الثمانينيات في العراق والسودان.

الثاني :عجز الحكومات العربية عن إقامة علاقات دعم وتعاون، بسبب ارتباك السياسات العربية وتناقضاتها والأزمات الاقتصادية. ولذلك، فقد كان الوضع مختلفاً، في مرحلة النهوض القومي. وكان لدى العرب في المرحلة

الاولى ١٩٥٥-١٩٧٣ ما يقدمونه لشعوب الجوار الاسيوي -الافريقي، وهو مطامح الاستقلال ومواجهة الامبريالية، والمساعدة في ذلك. ثم كان لدى العرب، وبعد الفورة النفطية. ما يقدمونه لهذه الشعوب في المرحلة الثانية ١٩٧٤-١٩٨٤، في ميدان المساعدات الاقتصادية. ولكن التحول الذي حَدَث، وتراجع الحركة القومية، وتفاقم الأَزَمَات الاقتصادية من منتصف الثمانينيات، وبروز عوامل الضعف العربي الرسمي والشعبي، قاد حتى هؤلاء الذين تتمتعوا بكل اشكال المساعدات العربية الرسمية والشعبية، مثل القيادة الحالية للنظام الارتري، الى الانتقال الى الجبهة المعادية.

وسيظل العدو الصهيوني، وما دام يحمل نظريته الأمنية الراهنة، مصراً على إقامة هذا «الحلف المحيط» ما دام قادراً.

٣- تدمير البنى الحية لمنع التطور، ولزيادة عوامل الضعف. ان الدولة الصهيونية خاصة، والحركة الصهيونية عامة، تعرف بحكم خبرتها التاريخية، ووسائل العلم الحديث أن الصراع العربي -الصهيوني لا يهدأ، إن لم تضرب البنى الحية في جسم الأمة، ليسود الضعف، بدلاً من القوة. وهذا يحتاج الى:

أ-ازدياد عوامل الشرذمة الداخلية، وتفاقم الصراعات العبثية. ولذلك تُشجع الصراعات الاثنية والدينية والطائفية واللهجية واللغوية وتمول. كما يجري العمل لتأجيج الصراعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، الى الحدود التي تُسقط مصالح الامة والوطن.

ب- الدفع نحو مزيد من التجزئة لتُفَت الاقطار الكبرى، مصر، المغرب، الجزائر، العراق، سورية، السودان والمملكة العربية السعودية واليمن، ولتبنى دويلات صغرى فسيفسائية متضادة، كمشروع الدولة الفلسطينية ودولة البوليساريو.

جـ- ضرب الاتجاه للتقدم العلمي بمحاصرة كل الجهود لانتقال التكنولوجيا، والتحكم بآليات التطور، والعمل على استقطاب العلماء العرب، او حتى قتلهم، وممارسة دور المراقبة والابتزاز على العلماء الاجانب [٣٢].

د- العمل على انتشار المخدرات، بكل الوسائل الممكنة، وربط حركة تهريب المخدرات بشبكات التجسس التي يوظفها العدو [٣٣]. وهناك أحاديث عن العمل على نشر مرض نقص المناعة (الايدز) [٣٤].

هـ- توظيف الحروب في توجيه ضربات، تحقق ما يلي:

هـ-١: استنزاف الطاقة البشرية، ولذلك يجري تعمد إبادة اكبر عدد ممكن من الجنود. ولعل في الكشف عن عمليات إبادة الأسرى المصريين في سيناء ما يدل على ذلك [٣٥]. ومن المؤكد ان هذا جرى في الجبهات الأخرى.

هـ-٢: تحقيق أعلى استنزاف اقتصادي، لا بتدمير أكبر عدد ممكن من الدبابات والطائرات والسيارات والأسلحة فقط، بل بضرب البنى التحتية، كما كشفت معركة لبنان، ومصر وسورية والاردن، وكل الجبهات [٣٦].

هـ-٣ : إحداث أكبر قدر ممكن من الصدمة النفسية لزرع روح الهزيمة والاستسلام في الجمهور الاوسع من الشعب. ويجري الحديث كثيراً عن ضرورة امتلاك القدرة لإحداث الهزيمة الساحقة السريعة [٣٧].

هـ-٤ : ايقاع اكبر الخسائر الممكنة في المدنيين [٣٨].

والعدو الصهيوني الذي يمارس ذلك، يدعو أي طرف معادٍ للعرب لممارسته.

ولذلك، فإن بن غوريون، طالب بالتدخل العسكري المباشر، عندما اندلعت ثورة ١٩٥٨ في العراق.

أما سنة ١٩٩٠، وبعد دخول القوات العراقية الكويت، فإن إسحق شامير رئيس وزراء دولة العدو، كان «مسروراً»، عندما خرج من مقابلة الرئيس بوش، وكان سروره لسببين : أولهما : «لان شامير استطاع أن يفهم أخيراً أن جورج بوش، كان ممتلئاً بالتصميم لسحق صدام. وبالإضافة الى ذلك، فانه قد فَهِم في الاجتماع، كما أوضح سمحا دينيتز (Simcha Dinitz) السفير الاسرائيلي السابق إلى الولايات المتحدة، أن الخلافات في الرأي، حول قضايا مثل توسيع المستوطنات في الضفة الغربية، قد «تأجلت» إلى المستقبل البعيد» [٣٩].

لقد كانت حكومة العدو حريصة على «سحق» العراق ؛ لان هذا هو سلامها. ولقد قامت حكومة الولايات المتحدة، تساندها ثلاثون دولة بالمهمة.

وما زالت تقوم بها . وينسجم ذلك مع المخطط الصهيوني تماماً، لان قدرات العراق قد تهدد بعض مصالح الولايات المتحدة الاميركية في المشرق العربي عامة، والخليج خاصة . ولكن قدرات العراق، تمثل تهديداً جدياً لوجود «دولة اسرائيل» في حسابات الصراع العربي- الصهيوني الحقيقية . واذا كانت حكومة الولايات المتحدة الاميركية، قد قامت بهذا الجهد الكبير والخطر، باسم« تحرير الكويت »، وفرض الاستقرار « في الشرق الاوسط »، فانها كانت تفعل ذلك لضمان « بقاء اسرائيل »، واستمرار تفوقها في هذا الجزء من العالم .

واذا كان الامر، يتعلق أساساً بالعرب، وبإخضاع العرب، ونهب ثرواتهم، فانه يتجاوز ذلك الى بلدان العالم الاسلامي، عندما تخرج عن المخطط الاميركي الامبريالي .

ولذلك قامت قيادة العدو الصهيوني بمحاولات عدة لمنع باكستان وايران من امتلاك القنبلة النووية . وتثير حكومتا العدو الصهيوني والولايات المتحدة الاميركية زوبعة كبرى اليوم، حول التسلح الايراني، النووي وغير النووي .

ولذلك دعا بيريز الى قيام جبهة عربية- اسرائيلية في مواجهة ايران، ودعا براك الى تكوين جبهة عالمية . وها هو نتينياهو يفعل ذلك .

ومما هو جدير بالذكر ان السياسة العليا الصهيونية مكشوفة، وهي تتلخص في أن « دولة اسرائيل »، وجدت بالقوة، وستبقى بالقوة . وما للسلام من معنى غير الاستجابة لشروطها الآنية والمرحلية، وانتظار التطورات المقبلة،

بلا تحريك ساكن. ومن يحرك ساكناً، يجد الردع الذي تحدده ضرورات «أمن اسرائيل»، كما يراها قادتها. فهناك التهديد المباشر واستخدام الضغط الدولي، واثارة المشاكل الداخلية، وعمليات الردع المحدود، او الضربات الاجهاضية.

ولكي يتحقق ذلك لأبُدّ من امتلاك «قوة ماحقة»، لا تسمح لأي تطور ان يخلق مفاجآت.

هامش -٥-

١- يراجع حول شروط العدو للتفاوض:

رندة شرارة : إسرائيل والتسوية السياسية : مجلة الدراسات الفلسطينية .العدد ٦ ربيع ١٩٩١،ص٢٦٩-٢٨٦.

Avi Shlaim: Israeli Politics And Middle East Peac making. Journal of Palestine studies. vol XXIV, Number 4, Summer 1995. P.P. 20-31

ويراجع حول أوسلو:

- شفيق الحوت :اتفاقية غزة -أريحا أولاً.الحل المرفوض .دارالاستقلال، بيروت ١٩٩٤.

-د. حسن حلبي ود. عدنان حسين: سلم أوسلو الدولة، القضية -الشرق أوسطية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٩٥.

٢- Marrin Indyk: Watershed in the Middle East: Foreign AFrairs, vol. 71. No. 1. P.P. 70-93.

٣- د.غازي حسين : الصراع العربي -الإسرائيلي والشرعية الدولية. مطبعة الكاتب العربي -دمشق ١٩٩٥،ص١٥٠-١٥٨.

٤- Martin Indy k: Ibid .P.P. 83.

٥-جو ستورك :إدارة كلنتون والقضية الفلسطينية ،المستقبل العربي، العدد ١/٢٠٣,١/١٩٩٦،ص٨٦-٩٩.

٦– Martin Indy k: Ibid .P.P. 86

٧– Andrew and Leslie Cockburn: dangrous Liaison. Stood Dart. 1991. P.P. 350-353.

٨– Andrew and Leslie Cockburn: Ibid

Cheryl A.Runbenbere: Israel and The American National in Terests. University of Illinois Press. Urbana and Chcago .1986

٩– ناجي علوش :المنظمة من التحرير الى إسقاط الميثاق .مجلة قضايا دولية ، السنة السابعة، ٢٧ ذو القعدة ١٤١٦ / ١٥ ابريل ١٩٩٦،ص ٢٠–٢٣ .

١٠– Moshe Dayan: Story of my life, William Morrow and Company. INC. New York 1976, P.P. 691

١١– Shimon Peres: The New Middle East. Henry Holt and Company/ New York. 1993. P.P. 81.

١٢–ايهود براك :محاضرة لرئيس الاركان الاسرائيلي في النادي التجاري–الصناعي ،تل ابيب ٣ / ١٢ / ١٩٩٤ ،مجلة الدراسات الفلسطينية ،العدد ١٧ ،شتاء ١٩٩٤،ص ٢٥٠–٢٦٣ .

١٣– Cecil v. Crabb,Jr.:American Foreign Policy In The Nuclear Age:Harpar And RowPublishers,1972,P.P.268.

١٤– Cecil v. Crabb,Jr.Ibid,P.P.272.

Itmar Robinorich and Jehuda Reinharz, (Ed): Israel in the Middle–١٥
East. Oxford University Press. 1984. p.p. 95.

Itmarra Binovlch And Jehuda Reinharz:Ibid.P.P.96.–١٦

David Mayers:George Kennan and the Dlemmas of U.S.Foreign–١٧
ford University Press.1988. P.P.250.Policy, Ox

Cheryl A. Rubenberg :Ibid P.P.1–١٨

Oye,Lieber,Rothchild,(Ed):Eagle in a New World.American Grand–١٩
in the Post- Cold war Era.Harper Collins Publishers,1992.P.P.434. strategy

٢٠– طالب رئيس الوزراء السابق بيريز،في تصريحات علنية، بمعاهدات دفاع مشترك كما طالب أشكول من قبل.

David Mayers:Ibid.P.P.250–٢١

Cecil v.Crabb.Jr: Ibid.P.P.273–٢٢

Cheryl ,A.Rubenberg:Ibid .P.P.335.–٢٣

٢٤– ليث عبدالحسن جواد الزبيدي :ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨في العراق ،مكتبة اليقظة العربية، بغداد ،١٩٨١،ص٢١٣،ويراجع: Abba Eban :MyPeople .P.P.517

يقول أبا ايبان: «وفي نيسان ١٩٦٣،عندما أعلنت مصر وسورية والعراق واحداً من اتحاداتها الفيدرالية الورقية ،كان رد فعل بن غوريون إرسال رسائل الى مائة حكومة ،تحمل إنذاراً رؤيوياً يتناقض بحدة مع ثقته التقليدية، ص٥١٧.

Andrew And Leslie Cochburn, Ibid P.P. 99–٢٥

Itmar Rabinovich and Jehuda Reinharz:Ibid.P.P.171.–٢٦

Itmar Rabinovich and Jehuda Reinharz:Ibid. .P.P.172.–٢٧

Machael Bar Zoher: The Armed Prophet. Arthur Barker Limited –٢٨
1996. P.P. 261-263

Michael Bar Zoher:Ibid.P.P.263–٢٩

Michael Bar Zoher:Ibid P.P.263–٣٠

٣١– نزار حميد : العلاقات الافريقية الاسرائيلية : مجلة الأرض،العدد الثاني ،شباط ١٩٩٥،ص(٣١–٦١).

–وكامل الشريف : المغامرة الاسرائيلية في افريقيا ،الدار السعودية للمنشر والتوزيع ط/٢/سنة ١٤٠٤ و١٩٨٤.

Andrew And Leslie cockburn:Ibid .P.P.110,120

William Lowther:Arms and The Man,Doubleday Canada Limit-–٣٢
ed,1991

وعادل حمودة: الحرب الباردة بين مصر واسرائيل: رزو اليوسف، العدد ٣٥٧٩، ١٣ يناير ١٩٩٧، ص(٢٦–٣١). ويقول عادل حمودة بأن لديه كتاباً عنوانه: «الموساد واغتيال المشد». والمشد عالم ذرة مصري عمل في البرنامج النووي العراقي.

٣٣–فتحي خطاب :قرية «نوسا الغيط» على خريطة التجسس وترويج قنابل الجنس .الرأي،العدد ٩٤٠٢ تاريخ ٣٠/٥/١٩٩٦ .ص٣٨.

٣٤– جرى الحديث عن موضوع الايدز في الصحف، ورغم ذلك فليس هناك حتى الآن دراسات موثقة.

- عبد الجواد صالح: الاحتلال والمخدرات، مركز القدس للدراسات الإنمائية. لندن ١٩٩٠، وخاصة دور سلطات الاحتلال وأجهزتها في نشر المخدرات، ص ٣٨.

- الاهرام العربي، العدد ١٨، ٢٦/٧/١٩٩٧، جرائم الاسرائيليين في مصر، ص ٢٢-٢٣.

٣٥- يراجع هنا :أ- اكتوبر المصرية ،العدد ١٧,٩٨٦/٩/١٩٩٥،ص١٨-١٩.
ب- المصور المصرية،العدد ١٥,٣٧٠١/٩/١٩٩٥ ،ص ٢٨-٢٩، الدستور الاردنية ٢٣/٨/١٩٩٥.

٣٦-د.هثيم كيلاني : الارهاب يؤسس .دولة -نموذج اسرائيل ،دار الشروق ،القاهرة، ١٩٩٧، ص١٦٦-١٦٨ ،ومن ذلك ١- اتلاف المحاصيل الزراعية بمواد كيمياوية ،٢- ضرب محطات الماء والكهرباء ،٣- ضرب المستشفيات ٤- ضرب المدارس ،٥- ضرب المصانع.

٣٧-ايغال آلون: انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي ،ترجمة :عثمان سعيد، مراجعة وتقديم: ناجي علوش ،دارالعودة ١٩٧١ ،ص١٥-٣٦.

وايهود باراك : مرجع سابق، ص٢٥٠-٢٦٣.

٣٨- د.هثيم الكيلاني :المرجع السابق، ص١٦٦-١٦٨.

٣٩- Andrew and Leslie Cockburn: Ibid.P.P.356

٤٠- د.حسن عبد ربه المصري: اسرائيل تتعهد قطع يد ايران ...قبل ان تمتلك اسلحة ذرية. القدس العربي .عدد ٢٥٦١ ،تاريخ ٢-٣ آب ١٩٩٧.

وبول باور :القضايا النووية في الشرق الاوسط.القدس العربي .العدد ٢٥٧٥ ،تاريخ ١٩/٨/١٩٩٧.

-٦-

وهكذا فان الصراع، سوف يستمر ويتواصل، ولذلك سببان :

الأول: ويعود الى طبيعة العدو الصهيوني.

والثاني: ويعود الى آلية الجسم العربي في الرد.

ومن لا يدرس هذين العاملين، لا يستطيع ان يفهم ما يجري، أو أن يحلل إشكالات العلاقة العربية - الصهيونية، منذ بدء بناء المستوطنات، في القرن الماضي، حتى الان. وهو ما سنبحثه في دراسة لاحقه، مكتفين هنا بدراسة طبيعة العدو الصهيوني.

فما هي طبيعة العدو الصهيوني هذه التي تجعل السلام معه غير ممكن؟.

إننا هنا نجد امامنا قضيتين كبريين:

الأولى: ان اليهود الصهيونيين الذي جاءوا الى فلسطين، بقيادة حركتهم الصهيونية، جاءوا حاملين التوراة. ولذلك، فان التوراة، ليست كتاب الصهيونيين المقدس، انها دليلهم وحافزهم ومُلهمهم. والتوراة تعلم كل يهودي، ما دام يهودياً، وحتى لو رفض ان يكون صهيونياً، ما يلي:

١-أن يهوه، أعطى لبني اسرائيل، أرض كنعان. وكما جاء في التوراة (تكوين أ-١٥-١٨) «في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك اعطي هذه الأرض من نهر مصر، الى النهر الكبير نهر

الفرات ». وهذا ما جاء في أماكن متعددة من التوراة (التثنية أ-١-٧) و(خروج أ-٣-١٧)و(خروج أ-٦-٤).

٢- أن يهوه أعطى بني اسرائيل الحق في طرد سكان الأرض، وكما جاء في التوراة :« وان لم تطردوا السكان، سكان الأرض من أمامكم، يكون الذين ستبقون منهم أشواكاً في أعينكم، ومناخس في جوانبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها »(عدد أ-٣٣-٥٥). ويقوم الرب، هو بنفسه، بطرد هؤلاء الاقوام، كما جاء في التوراة ايضاً : « وحتى اتى بك الرب الهك الى الأرض التي انت داخل اليها لتمتلكها، وَطَرَد شعوباً كثيرة من أمامك :الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانين والفرزين والجويين واليبوسيين، سبع شعوب أكثرواعظم منك »(تثنية أ-٧-١)[١].

٣- أن يهوه يبث الرهبة والرعب في قلوب هؤلاء الذين يسكنون الأرض، وكما تقول التوراة : « ترشد برأفتك الشعب الذي فَديته. تهديه بقوتك الى مسكن قدسك. يسمع الشعوب فيرتعدون. تأخذ الرعدة سكان فلسطين. حينئذ يندهش أمراء أدوم. أقوياء مؤاب تأخذهم الرجفة، يذوب جميع سكان كنعان، تقع عليهم الهيبة والرعب » (خروج أ-١٥-١٣) (ويشوع أ-٢٤-١٨).

٤-أن يهوه أباح لبني اسرائيل ان يغتصبوا حقوق الآخرين، وكما جاء في التوراة :« ومتى أتى بك الرب الهك الى الأرض التي حلف لآبائك ابراهيم واسحق ويعقوب ان يعطيك. الى مدن عظيمة جيدة

لم تبنها، وبيوت مملؤة كل خير لم تملأها، وآبار محفورة لم تحفرها، وكروم لم تغرسها، وأكلت وشبعت »(تثنية أ–٦–١٠).

٥– أن يهوه أباح لنبي اسرائيل الانتقام. « وكلم الرب موسى قائلاً : انتقم نقمة لبني اسرائيل من المديانيين ثم تُضم الى قومك ». « فتجندوا على مديان، كما أمر الرب، وقتلوا كل ذكر. وسبى بنو اسرائيل نساء مديان واطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم »(العدد أ– ٣١–١و٧و٩) [٢].

إن هذا غيض من فيض، من الثقافة التوراتية التي يشحن بها اليهودي. وهو يُعَلّم أنه فرد متفرد من شعب مختار، وأن دينه يأمره بالاستيلاء على اراضي « الأغيار »، وَطَرد سكانها، او استعبادهم، وسكن بيوتهم ومدنهم، وحرق اشجارهم وامتلاك مواشيهم، والانتقام الدموي، إذا قرر الانتقام.

فكيف يمكن أن نتصور إنساناً يُعَبّأ هذه التبعئة لمدة عام؟. وكيف اذا كان يعبأ بها، منذ ما يزيد عن ألفي عام ؟. وهل يمكن إقامة سلام معه؟.

ولقد سلكت « دولة اسرائيل » و« شعب اسرائيل » مسلك أسباط التوراة تماماً. فقد استباحوا الأرض، حسب « وعد الرب »، واستباحوا قتل السكان. . . سكان الأرض، فطردوا من طردوا، وأبقوا من أبقوا، ولكن الذين ظلوا تحوّلوا لى « عبيد »، كما فعل « بنو اسرائيل » الأوائل مع الكنعانيين. أمّا القتل، فقد جعلوه نهجاًوديدناً، ولم يرحموا نساءً ولا اطفالاً، كما فعل أسلافهم التوراتيون، وتكفى الجرائم المكشوفة دليلاً، من دير ياسين الى قانا. وهي كثيرة [٣]. وقد امتلكوا مُدناً لم يبنوها، وسكنوا بيوتاً عامرة لم يؤثثوها،

وشربوا من آبار لم يحفرها، وأكلوا من كروم لم يغرسوها. واذا كانت قصص التوراة أسطورة، تعتبر ديناً سماوياً. فإن جرآئم اليوم، تعتبر من قضايا الحرية..!

وها هم يحاولون ان يمدوا رهبتهم ورعبهم، من المحيط الى الخليج، لا من النيل الى الفرات، كما فعل اسلافهم التوراتيون. وأن يهزموا كل قوة، يمكن ان تتحدى وجودهم، اينما كانت من هذا الوطن العربي والعالم الاسلامي. والواقع الحي أغنى من التوراة وأساطيرها.

وصحيح ان علم الآثار، يثبت في هذه الايام أن «وجود اسرائيل» التوراتي، ليس إلاّ مجموعة اساطير مُجمعة ملفقة (٤). ولكن التربية التوراتية حقيقة واقعة لا يمكن إغفالها.

ولقد بدأت الحركة الصهيونية، من رجال يَبْدون علمانيين. «ومن الطريف ان معظم العاملين في المنظمة الصهيونية كانوا ملحدين أو لا دنيين او غير ملتزمين بالدين»(٥). ولم يُبْدِ عدد: «كبير من مؤسسي الصهيونية، اي اهتمام بالهيودية، إنهم أظهروا عداء ملحوظاً لافكارها وممارساتها». وقد حرص هرتسل، عندما زار القدس، ان ينتهك «العديد من الشعائر الدينية اليهودية، ليؤكد تميز نظرته اللادينية عن العقيدة الدينية». اما ماكس نورداو (١٨٤٩-١٩٢٣)، وهو من زعماء الصهيونية، ومن المقربين لهرتسل، فقد كان: «يجهر بالالحاد، كما كان مؤمناً بان التوراة (تعتبر كعمل أدبي أقل من أعمال هوميروس والكلاسيكيات الأوروبية)، وبأنها (طفولية كفلسفة ومقززة كنظام اخلاقي). بل إنه وصل الى حد القول: أنه سيأتي يوم يأخذ فيه

كتاب هرتسل -دولة اليهود- وضعاً مساوياً لوضع الكتاب المقدس، حتى لدى خصوم المؤلف من المتدنين »[٦]. وكان بن غوريون وجولد مئير كذلك [٧]. ورغم ذلك، فان رواد الحركة الصهيونية اندفعوا :« الى الدعوة للتمسك بالدين واحياء علومه ولغته ومحاربة الزواج المختلط ». ولذلك :« نجد المطبوعات الصهيونية مليئة بالمقالات والتقارير التي تؤكد على ضرورة التمسك بالدين وشعائره، وتدق أجراس الخطر إزاء أي اجراءات تؤدي الى تقليص التعليم الديني ومزاولة طقوسه وقواعده »[٨].

وكان اليهود في أوروبا الغربية، عندما نشأت الحركة الصهيونية، يمرون بنوع من الانعتاق. ولكن الانعتاق أخافهم، لانه يقودهم الى الاندماج. ولذلك لقيت الدعوة الى العودة انجذاباً واسعاً نحو صهيون. ونحن نرى ان ما يسمى «الانجذاب نحو صهيون»، كان نتيجة رفض الانصهار في المجتمعات التي يعيش اليهود فيها. وان كان الانصهار لا يعني الذوبان الشخصي، بل « ذوبان الغيتو ». ولكن يهود أوروبا الشرقية كانوا متدينين. وكانوا اكثر تمسكاً بالتوراة وطقوسها. ولم يجد رواد الصهيونية السياسية اشكالاً في ذلك، ووجدوا الحل، بدمج الصهيونية السياسية، بالصهيونية الدينية. وهذا ما قاد الصهيونية السياسية :« الى تبني الافكار والرموز الدينية المألوفة لدى الجماهير»، وتحويلها: «الى رموز وافكار قومية، في صياغة شبه دينية للبرنامج الصهيوني، ليكون محل قبول من كافة التنوعات الاجتماعية والعرقية والحضارية والثقافية ليهود اوروبا »[٩]. وطبيعي ان يقود هذا :« الى نشوء علاقة وثيقة بين الصهيونية والدين اليهودي »[١٠].

وكان هذا يحقق هدفين في آن معاً، فهو من ناحية يوحد اوروبا والعالم المسيحي، باتجاهاته العلمانية والاشتراكية والمسيحية حول الصهيونية، وهو في الوقت عينه، يوحد معظم اليهود.

ولكن الصهيونية السياسية، التي امتلكت درجة عالية، من «البراجماتية» وجدت ان مشروعها لا يَقوم إلا بالتوحد مع الصهيونية الدينية، لان الهدف السياسي، وهو العودة الى «أرض الميعاد»، يحتاج الى التراث التوراتي كله، ولان الجمهور اليهود ي، لا يستجيب لاهداف الصهيونية السياسية دون «الوعد الالهي».

وأدركت الصهيونية الدينية أهمية مشروع الصهيونية السياسية. وفي سنة ١٩٠١، تأسس حزب مزراحي (المركز الروحي) تحت شعار «أرض اسرائيل لشعب اسرائيل وفق شريعة اسرائيل». وما لبث هذا الحزب، «وبعد مما حكات دينية وجيزة مع أصحاب الصهيونية السياسية» أن أعطى تأييده، ومنذ ١٩١١، للحركة الصهيونية. وأصبح هذا الحزب حزباً رئيسياً في فلسطين، سنة ١٩١٨، ليلعب دوراً بارزاً في «توجيه اسرائيل فيما بعد»[١١].

وتوالى تأييد الحاخات اليهود للحركة الصهيونية. وكان من ذلك مؤتمر الحاخامين البريطانيين الذي عقد سنة ١٩١٦.

وكان هرتزل قد استشرف دوراً لهؤلاء الحاخامين في كتابة: «الدولة اليهودية»، فقال: «سوف يقوم حاخامونا الذين نتوجه اليهم بنداء خاص بتكريس طاقاتهم لخدمة فكرتنا، وسوف يتوجهون بها الى رعيتهم عن طريق الوعظ من منابر الصلاة»[١٢].

إن عملية «التكامل» هذه بين الصهيونية السياسية والصهيونية الدينية، أعطت للصهيونية السياسية قوة شعبية، وأعطت للقوى الدينية قوة دينية وسياسية في الشتات، وفي المستعمرات بفلسطين. وأخذت هذه القوة الدينية السياسية تتنامى، بفضل دور الحاخامين ومؤسساتهم، واعتماد الصهيونية السياسية عليهم في التعبئة والحشد، واستخدام الصهيونية السياسية منطقهم في طَرح قضية العودة وأرض الميعاد.

وأقدمت الصهيونية السياسية على استثمار اسطورة «الوعد الالهي» و«أرض الميعاد»، دون أن يعنيها من هذا الأمر، إلاّ ما يثيره في اليهود. ولذلك ربطت بين مشروعها السياسي والوعد التوراتي في بيان اعلان الاستقلال: «في (أرض اسرائيل) قام الشعب اليهودي، ففيها شكلت صورته الروحية والدينية والسياسية، وفيها عاش حياة استقلال رسمية، وفيها أنتج تراث ثقافة قدسية وانسانية شاملة، وأورث العالم كتاب الكتب الأبدي»(١٣).

ومنذ قيام الدولة الصهيونية، والقوى الدينية تتقدم. لأن الصهيونية السياسية، ورغم انتصاراتها، ما بين ١٩٤٧–١٩٦٧، في ميدان الحرب والسياسة وبناء الدولة، أخذت تتراجع. وكان من أسباب ذلك:

١ – ان الانتصارات السياسية والعسكرية، شَجّعت الروح العسكرية غير المساومة، وأعطت للتوراتيين مَداً جديداً، من القوة والكبرياء والتمسك بسياسة السيف، و«اسرائيل من النيل الى الفرات».

٢ – أن سلوك الصهيونية السياسية سلوكاً توارتياً في الحرب والسياسة والدعاوى، والابتعاد عن مفاهيم «الصهيونية الاشتراكية»، أضعف منطق الصهيونية السياسية، أمام الصهيونية الدينية.

٣-أن تواصل حصار الكيان الصهيوني، منذ ١٩٤٧، وانفجار المقاومة سنة ١٩٦٥، وتصاعدها، منذ ١٩٦٧، واندلاع حرب تشرين، سنة ١٩٧٣، وما كشفته هذه الحرب، من ازدياد قوة العرب النسبية، وانكشاف نقاط ضعف الكيان الصهيوني، أضعف الثقة بقيادة الصهيونية السياسية.

٤- أن الفترة التي تلت سنة ١٩٦٧، شهدت اتجاهاً الى التراجع الاقتصادي، ما لبث ان تحول الى ركود وكساد، مع حرب ١٩٧٣. وهكذا :« تراجع النمو بالمعدلات العالية للفترة السابقة، حتى أنه بلغ الصفر في بعض السنوات ». ولم يتجاوز معدل ٣٪، خلال الفترة (١٩٧٣-١٩٨٥). ورافق ذلك : « عجز كبير في ميزان المدفوعات التجاري، وفي ميزانية الحكومة »[١٤].

٥- أن الجهود التي بذلتها القوى الدينية ومؤسساتها، كانت قد أثمرت، بعد طول كفاح. وكانت عوامل مختلفة، على الصعيد العالمي، قد ساعدت القوى الدينية على التوسع والتطور، حتى صار ذلك ظاهرة عالمية.

ولذلك، لم ينجح حزب العمل في انتخابات ١٩٧٧. ووصل الى السلطة حزب الليكود، بقيادة مناحيم بيغن. ورغم ان بيغن يمثل نوعاً آخر من الصهيونية السياسية، إلاّ أنه نوع اكثر حرصاً على تمثيل المتدينين اليهود، منه على تمثيل قطاع علماني صهيوني، يحمل قناعاً أوروبياً.

« وقد ازداد عدد وأهمية ووزن هذه القوى الدينية زيادة مضطردة، منذ ذلك الحين »[١٥].

وجاء تراجع حزب العمل، واختلال ميزان القوى لمصلحة حزب الليكود، ليزيد من فرص القوى الدينية لفرض سياساتها، حتى أصبح: «الحاخامون هم الذين يقررون سير الحكم، ويُملون على الحكومة ما ينبغي من التشريعات والاجراءات»(١٦).

ورغم عودة حزب العمل الى السلطة، فيما بعد، سنة ١٩٩٢، حيث ظل في السلطة، حتى ٢٩ ايار ١٩٩٦، فان دور القوى الدينية آخذ في التزايد، وكان بن غوريون، وهو مازال رئيس الوكالة اليهودية، وجه خطاباً الى حزب «أجودات اسرائيل»-، وهو حزب أنشئ رسمياً، سنة ١٩١٢، وأختار مؤتمره «مجلس كبار علماء التوراة» (١٧)- وعد فيه أن يتم الالتزام بما يلي:

أ- يوم السبت : باعتباره يوم الراحة الرسمية في الدولة.

ب- اللَشيروت: ضمان الالتزام بالطعام، حسب الشريعة في المطابخ الرسمية.

جـ- قوانين الأحوال الشخصية: تفوِّض مؤسسة القضاء الحاخامي بكل الصلاحيات في ميدان الطلاق و الزواج.

د- التعليم: الاعتراف باستقلال مؤسسة التعليم الديني (١٨).

وتحكم هذه المبادئ كل اتفاق بين الاحزاب الدينية والحزب الحاكم، سواء كان العمل أو الليكود (١٩).

ولكن الاحزاب الدينية واصلت نضالها لاستكمال تطبيق الشريعة. «وعادت للحاخامات سلطتهم في الأمر والنهي، في كل صغيرة وكبيرة،

اعتباراً من تقديم الآيس كريم في طائرات العال، وتسيير الحافلات في يوم السبت، الى التصريح بشرعية القوانين الدستورية »[٢٠].

وخاض الحاخامات معارك لالغاء الزواج المدني ونجحوا، وفرضوا على غير اليهودية التي تريد أن تتزوج يهودياً، أن تدخل في دورة لمدة عامين، ثم تُطهّر بعد ذلك في حمام « تغطس فيه عارية أمام ثلاثة من الحاخامين »، وأُخضعت مطابخ الجيش والمدارس والجامعات وخطوط الطيران لقواعد الطعام اليهودية. وأصدر الكنيست، في حزيران سنة ١٩٨٥ قراراً، بناء على طلب الكتلة الدينية : « بمنع تربية الخنازير أو تقديم لحمها للاستهلاك »[٢١].

وإذا كانت هذه نماذج عن التدخل في الحياة المدنية، فإن التدخل في الحياة السياسية لم يكن أقل. وما أعلن عن الاتفاق عليه، بين شمعون بيريز، رئيس وزراء العدو، والحركة الدينية – الوطنية التي يمثلها الحاخام بن نون، نموذج لهذه الاتفاقات [٢١]. فقد نص هذا الاتفاق على ثوابت لا يتنازل عنها الصهيونيون الدينيون، مثل أنْ: « لا خلاف بين حركة العمل والحركة الدينية الوطنية، فيما يتعلق بحق شعب اسرائيل على أرض اسرائيل، أو بالنسبة لحقه (أي شعب اسرائيل) المشروع في الاستيطان في كل أجزائها، (أرض اسرائيل) ». وينص الاتفاق على ضمان :« سيادة اسرائيل في اجزاء حيوية من يهودا والسامرة » في :« أية تسوية دائمة ». ومن ذلك أن تضمن أية تسوية: « بقاء غالبية المستوطنين تحت سيادة اسرائيلية في اطار كتل استيطانية ». والأخطر من هذا كله، أن : « التسوية الدائمة مع الفلسطينين تطرح على استفتاء شعبي قبل المصادقة عليها نهائياً ».

ولا تتوقف الاشتراطات هنا، فهناك اشتراطات دائماً بمناسبة وبلا مناسبة، والحركة الدينية التي تتسع وتتنامى، تطلق هذه الاشتراطات بلا حساب. ومن ذلك، حسب ما يوضح يهوشفاط هركابي، وهو رئيس سابق لجهاز الاستخبارات العسكرية:

١- أن الانسحاب من الأراضي التي احتلتها «القوات الاسرائيلية» محرم. ويجد هؤلاء المنتمون الى المعسكر الديني التبرير: «لضم المناطق المحتلة، او حتى منع الانسحاب منها في شروح (1194-1270) (NAHMANIDES) على كتاب (MAIMONIDES 1135-1204) المسمى كتاب الوصايا» الذي جاء فيه: لقد أمرنا، أن نرث الأرض التي أعطاها الرب لابراهيم واسحق ويعقوب، ويجب ألاّ نتركها في أيدي اي شعب آخر، أو مهجورة. . . . يجب ألاّ نترك الأرض في أيدي (الشعوب الكنعانية السبعة)، أو أي شعب آخر، في أيّ جيل». ويُعلق الرابي زفي يهوداكوك (Svi Yehudah Kook): انها الواضحة للشريعة (Halaka)... [٢٣]... إن الالزام الرئيس في هذا الأمر، هو فتح تقوم به الدولة، والحكم القومي اليهودي في هذه الأرض...»[٢٣].

وبالنسبة للرابي كوك، فان التوراة، كما يقول: «تحرم علينا أن نسلم ولو بوصة واحدة من أرضنا المحررة. وما من احتلال هنا، ونحن لم نحتلَّ أراضي أجنبية، إننا نعود إلى بيتنا، الى ميراث أسلافنا. ما من أرض عربية هنا، بل إرث إلهنا، وكلما تَعوَّد العالم على هذه الفكرة، فان ذلك، سيكون أفضل لهم، ولنا جميعاً»[٢٤].

ويكرر كوك هذه الفكرة [٢٥].

٢- إن طرد السكان العرب واجب. وهذا تقليد يهودي، جاء في التوراة، كما ذكرنا، وكما يشير سفر (العدد أ - ٢، ٥، ٢٣).

والأمر لا يتوقف هنا، فهناك شروح كثيرة لهذا السفر. وقد اعتبرت الأمر مطلقاً، أي ليس مرهوناً بخروج بني اسرائيل من مصر فقط، بل في كل الحالات. ولذلك قال الشارح «راشيRashi» في القرن الحادي عشر: «إنكم سوف تندفعون في الأرض، وتحررونها من سكانها، ومن ثم تسكنونها، وهذا يعني أنكم ستستطيعون ان تظلوا فيها (اذا ما انتزعتم ملكيتها من سكانها)، فان لم تفعلوا فانكم سوف لا تستطيعون البقاء» [٢٦].

وهذا ما يؤكده الرابي إسرائيل ايريل (Israel Ariel). ويراه كاهانا (Kanane) على انه: «يحقق دورين: الأول، سياسي، ويمنع العرب من أن يصبحوا اكثرية، وبذلك يضعفون اسرائيل من الداخل، والثاني هو البرهان العملي على قرب الخلاص ومجيء المسيح». ولذلك، فان كاهانا يقول: «إن عرب اسرائيل تدنيس لاسم الرب، ان عدم قبولهم السيادة اليهودية على أرض اسرائيل معارضة لسيادة إله اسرائيل ولمملكته. ولذلك، فان تهجيرهم من الأرض أكثر من مسألة سياسية. إنها مسألة دينية، والتزام ديني لكنس تدنيس اسم الله. وبدلاً من التحسب من ردود أفعال الأغيار اذا فعلنا، فان علينا أن نرتجف أمام التفكير بغضب الله إن لم نفعل. إن المأساة ستحل بنا إن لم يُهَجّر العرب من الأرض. إذ أن الخلاص، سيأتي فوراً، بكل ألَق مجده، إذا ما فعلناه، كما أمرنا الله. . . لنهجر العرب من اسرائيل ونسّرع بالخلاص» [٢٧].

ويرتبط بهذا تحريم عيش غير اليهود في القدس خاصة و«اسرائيل» عامة [٢٨].

٣–إن الحرب واجبة ضد العماليق، والعماليق، هم العرب، كما يصفهم المتطرفون القوميون الدينيون تكراراً، وهؤلاء العماليق «هم الذين أُمِر اليهود بسحقهم كلياً »(التثنية ٢٥ :١٧–١٩)[٢٩].

وكتب الرابي اسرائيل هس (Yisrael hess)، رابي جامعة بار ايلان سابقاً، في مجلة الطالب مقالة عنوانها «أمر الابادة في التوراة »، اختتمها بقوله: «إن اليوم سيأتي، عندما نُدعى جميعاً لتنفيذ الحرب المقررة بأوامر إلهية، لتدمير العماليق».

ويقول النائب في الكنيست «أمنون روبنشتاين (Aminon Rubinstien) وهو يستشهد بمقالة هس :« الأمر يقضي بقتل وتدمير الأطفال والرُضَّع. والعماليق هم كل من يعلن الحرب ضد شعب الله »[٣٠].

وعليه، فان قتل غير اليهود ليس جريمة، وهو ما يؤكده في مقالاته الرابي اسرائيل ايريل [٣١].

٤– ان عوامل عظمة «إسرائيل»، وعلى رأسها القوى العسكرية، تحتل مرتبة مقدسة. وعليه فان :« القوة الدفاعية الاسرائيلية مقدسة، وحتى اسلحتها مقدسة »[٣٢].

ولذلك فان كل ما يفعله جيش الدفاع الاسرائيلي، يجري الصفح عنه سلفاً. وهذا ما يجعل الرابي كوك يقول: «كل مخطئ في اسرائيل مقدس، وحتى ضد مشيئته»[٣٣].

٥ـان اسرائيل اقوى من كل القوى في « الشرق الاوسط » . ويتمسك دعاة وجهة النظر هذه بأن اسرائيل ليست بحاجة :« لأي خوف من الحروب لمقبلة، وباستطاعتها ان تستثير هذه الحروب بارادتها » . وكتب الرابي شولوموافنيري(Shlomo Avineri) :« يجب ان نعيش على هذه الأرض، حتى لو كان الثمن الحرب . وفوق ذالك، حتى لو كان هناك سلام، فان علينا ان نستثير حروب التحرير حتى نفتتحها »[٣٤] .

هذه لغة القوى الدينية عموماً . واليهودية الاثوذوكسية تضم أربعين في المائة من « شعب اسرائيل »[٣٥] . وهناك اتفاق على أن الموجة الدينية في تصاعد، والمؤسسة الدينية واسعة . وصار : « من الصعب الوصول الى عدد هؤلاء الذين يعتاشون من الدين في اسرائيل »[٣٦] .

ويقول هيركابي :« ان توسع الدين في اسرائيل، قاد الى المادية من جهة اتباعه وقادته، والى تعبيرات عدوانية، وعدم تسامح وحرمانات، وعنف، وعصابات اجرامية دينية، وتخريب الممتلكات العامة »[٣٧] .

وبعد ذلك، ماذا علينا أن نتوقع غير ما نرى؟ . وما الذي يفصل هذه القوى الدينية عن حزب كالليكود؟ . . . . وماذا يفصل الليكود عن العمل في السياسة الواقعية ؟ . وهل من حقنا الا نحسب لهذا كله ألف حساب؟ . ولماذا لا يرى دعاة السلام وحقوق الانسان هذا كله ؟ . . . ! .

الثانية : أن هؤلاء الصهيونيين الذين جاءوا الى فلسطين، بمختلف فصائلهم واتجاهاتهم، جاءوا في موجة من موجات الاستعمار والاستيطاني الحديث . ولقد جاءوا، وهم يحملون التوراة في أيديهم، مثل البيض الذين

تدفقوا على قارتي اميركا الشمالية والجنوبية، واستراليا وكندا ونيوزلاندة وافريقيا، وهم في ذلك جزء من تجربة الاستعمار الاستيطاني الحديث.

ولقد لعب الفرنسيون، منذ غزو نابليون الأول (١٧٦٩-١٨٢١) مصر، في هذه العملية، كما لعب الانجليز، منذ عهد بالمرستون (١٧٨٤-١٩٦٥)، دورهم ايضاً[٣٨].

وكان الهدف عزل مصر عن سورية، بعد عملية محمد علي باشا، وتأمين طريق الهند، ثم تعددت الأهداف، من حماية قناة السويس، الى منع الوحدة العربية، ومواجهة الاتحاد السوفياتي والشيوعية.

ولذلك ظل المشروع مرتبطاً بقوى امبريالية خارجية، وكان الحامي الاساسي بريطانيا ١٩١٧-١٩٥٦، ثم صار حكومة الولايات المتحدة ١٩٥٧-١٩٩٧. وكان لفرنسا دور، منذ ١٩٥٢ حتى ١٩٦٧.

وكان طبيعياً أن يأخذ المشروع طابع المشروع الاستعماري الاستيطاني. ولو حاولنا ان نجري مقارنة بين المشاريع الاستعمارية الاستيطانية كلها والمشروع الصهيوني، لاكتشفنا ما يلي:

أولاً: أن المشروع الصهيوني، ككل مشروع استعماري استيطاني، استباح الأرض، وحاول أن يُخضع الشعب، وأن يحل سكاناً أجانب محله، وأن يمنع الشعب من سيادته على أرضه، وحريته في تقرير مصيره.

ثانياً: أن المشروع الصهيوني، ككل مشروع استعماري استيطاني، استخدم كل أشكال القوة، وعلى رأسها القوة العسكرية، لتحقيق أهدافه.

ثالثاً: ان المشروع الصهيوني، وككل مشروع استعماري استيطاني، اعتمد على قوة امبريالية عظمى فيما وراء البحار، وأن هذا المشروع لا يستطيع ان يبقى دون الاسناد الفعّال من هذه القوة.

رابعاً: أن المشروع الصهيوني، ككل مشروع استعماري استيطاني، يحتاج إلى السيطرة على دائرة حيوية واستثمارها، بما لا يهدد هذا المشروع، ولا يسمح بتهديد استقراره.

ولما كانت فلسطين مجرد رأس جسر في هذا المشروع، فان المدى الحيوي، يشمل مصر وأقطار المشرق العربي، وتركيا وإيران.

ولكن المشروع الصهيوني، الذي لا يختلف عن اي مشروع استعماري استيطاني في القضايا المشار اليها، يختلف عن مشاريع الاستعمار الاستيطاني، فيما يلي:

اولاً: أن المستوطنين في فلسطين، لا يحملون جنسية الدولة التي تحميهم، فهم ليسوا كالاسبان في «اميركا اللاتينية» الذين كانت تحميهم «دولة اسبانيا»، ولا كالفرنسيين في الجزائر الذين كانت تحميهم فرنسا، ولا كالمستوطنين في اميركا الشمالية، الذين كانت تحميهم بريطانيا. إنهم يحملون جنسيات مختلفة، من روسيا الى الولايات المتحدة الاميركية، ومن مراكش الى العراق.

ثانياً: أن المستوطنين، كانوا يأتون عادة باسم الاستعمار، ولم يأتوا مرة، باسم «الوعد الالهي» و«أرض الميعاد»، الا هذه المرة، وإن كان المبشرون قد رافقوا المستوطنين، والحكومات الاستعمارية قد تحدثت عن دور الرجل الابيض في تمدين الشعوب المتخلفة.

ثالثاً: أن المستوطنين، استوطنوا المستعمرات، وأوروبة تصعد، والمد الاستعماري يتعاظم. وقد بدأ المشروع الصهيوني، مع هذا المد، ولكن قيام «دولة اسرائيل»، جاء في الوقت الذي كان فيه المد الاستعماري يتراجع، سنة ١٩٤٨، وبعد الحرب العالمية الثانية.

ورغم هذه التباينات، ظلت الظاهرة الصهيونية ظاهرة استعمارية استيطانية، من حيث دورها الاقليمي وارتباطها الدولي، وأساليبها المتوحشة.

وإذا كانت القوى الاستعمارية الاستيطانية التي حملت راية اسبانيا، أو فرنسا أو بريطانيا أو إيطاليا، لم تجد في العهد الجديد، من الكتاب المقدس ما يبرر أعمالها، فان المستوطنين اليهود، يجدون في العهد القديم، كتابهم المقدس، كل المبررات لما يفعلون.

ويزيد من شراسة المشروع الصهيوني ثلاثة أمور:

الأول: أنه تَعلم من تجارب الاستعمار الاستيطاني كلها، إذ إن هذه التجارب لا تنجح، إلاّ اذا أبيد الشعب الأصلي، أو أخضع كلياً، كما هي الحال في الولايات المتحدة الاميركية، حيث تعرض الهنود الحمر لشبه إبادة تامة.

الثاني : أنه يعرف أن الفشل لا ينعكس على أربعة ملايين صهيوني ونصف، يعيشون في الأرض العربية المحتلة، بل على دور الصهيونية العالمي، ووضع اليهود في العالم.

الثالث : أنه يحاول أن يثبت النجاح، حيث تتجمع عوامل الفشل، من انهيار الظاهرة الاستعمارية -الاستيطانية في العالم الثالث، إلى ازدياد عوامل المقاومة في الوطن العربي والعالم الاسلامي، الى اشتداد ضغوط الوقوف « مع اسرائيل »، على الرأي العالم العالمي عامة، والأوروبي -الأميركي خاصة.

ولذلك، فإن هذه الظاهرة الاستعمارية -الاستيطانية أمام خيارين، أولهما : أن تقبل مبدأ التخلي عن دورها الاستعماري، وتحاول أن تبحث عن أسلوب للبقاء في مكانها. وهذا يقتضي التخلي عن سياسة الحرب، وفصم العلاقة مع الحماية الامبريالية، والبحث عن طرق التعايش. وهذا يعني، من وجهة نظر الصهيونية، فك الرباط مع الامبريالية العالمية والصهيونية العالمية، ويعني « الذوبان ». وهو ما قامت الحركة الصهيونية لرفضه ومقاومته. وثانيهما : أن تلجأ الى الوسائل والأساليب التي تضمن تعزيز الكيان الصهيوني، من حيث استقدام المزيد من المهاجرين، وامتلاك المزيد من القوة النوعية، وتعميق الارتباط مع حكومة الولايات المتحدة الاميركية، وخلق المزيد من الظروف الملائمة في المنطقة، كفرض ما يُسمىً السلام على الحكومات العربية، وخلق قطاعات سكانية عربية مرتبطة، واثارة الصراعات الداخلية، وعقد تحالفات مع قيادات من الأمم المجاورة، الاتراك، الأكراد، الايرانيين الخ. . . . وهذا ما تفعله علناً.

إن هذه الظاهرة الاستعمارية -الاستيطانية التي تحمل التوراة بيد، وتحمل ترس القوة الاستعمارية العظمى بيد أخرى، لا تخجل من تبني ما تطرحه التوراة، بشأن الوعد الالهي والميراث وقتل السكان وطردهم. ولكنها، وهذا هو الأكثر خطراً، لا تخجل من ممارسة دور قوة استعمارية نموذجية، تحتل وتقتل وتطرد وتهاجم، ولا تتورع عن استقدام المزيد من المستوطنين، والقيام بعمليات انتقامية فردية أو جماعية.

وما حدث في الواقع، منذ ١٩١٧ وحتى الآن، أغنى من كل اساطير التوراة، وبرامج بروتوكولات حكماء صهيون، بغض النظر ان كانت حقيقية أو مزيفة[٣٩].

إنّ اليهود الذين أحضرهم الفرس، في القرن الخامس قبل الميلاد لم يستطيعوا أن يحققوا ما نصت عليه توراتهم، لوجود الامبراطورية الرومانية، وقوتها في مواجهتهم[٤٠]. ولأن الآراميين ملأوا الأرض، وكما تقول التوراة: «وأمّا الآراميون فملأوا الأرض» (أخبار الملوك الاول أ-٢٠-٢٧). ولأن سكان فلسطين في ذلك الحين، لم يسمحوا بما أسمي اعادة بناء الهيكل. وكما تقول التوراة، (ولما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون والآشوريون ان أسوار اورشليم قد رُمّمت، والثُّغَر ابتدأت تُسَد غضبوا جداً) (نحميا أ-٤-٧).

أمّا اليهود الذين أحضرهم الاستعمار البريطاني، وحماهم الاستعمار الدولي، بقيادة حكومات الولايات المتحدة الاميركية، فانهم يحاولون اليوم ان يحققوا ما جاءت به توراتهم، من النيل الى الفرات. وهذه المهمة التي

يحققونها، باسم التوراة، لا تمت بعلاقة للأديان والرسل والرسالات، إنها مهمة استعمارية -استيطانية، لا غير. ولقد خدمت الامبريالية، وما زالت تخدمها، مسخرة اليهودي العادي وايمانه بتوراته لا شباع هوس اليهودي الى السلطة، ولتحقيق خطة الرأسمالية اليهودية في اكتساب المزيد من النفوذ العالمي، بامتلاك مصدر قوة غير رأس المال، والنفوذ السياسي من خلاله، ولكن الهدف الرئيس، هو تحقيق أهداف الدولة الامبريالية العظمى.

واذا كانت «اسرائيل» الأولى الحقيقية، قد صَنَعتها دولة فارس. وهي التي أحضرت هؤلاء اليهود الذين لم يهاجروا من فلسطين، حسب توماس ل تومسون. وقد صنعت لهم توراتهم، ليتذرعوا بها (٤١)، فان الدولة الامبريالية التي هزمت دولة الفرس، وهي دولة الرومان، صفّت الدولة اليهودية، قَبَل أن تكبر وتسيطر (٤٢).

وكان الآراميون يمتدون في الأرض، ويرفضون قيام «اسرائيل».

وها هي «اسرائيل» الجديدة، تحمل راية امبراطورية عظمى، وتأتي. وعندما يأفل نجم هذه الامبراطورية، وتأخذ بريطانيا العظمى في التراجع، تنقل قيادة الحركة الصهيونية مركزها من لندن الى واشنطن.

وكان طبيعيا أن تقف قيادة الحركة الصهيونية في «اسرائيل»، وفي العالم مع حكومة الولايات المتحدة وحلفائها، ضد الاتحاد السوفياتي وحلفائه.

واليوم، وبعد ان أختفى الاتحاد السوفياتي من خريطة الصراع العالمي، يحق لقيادة الحركة الصهيونية ان تفرح بغياب خصم ايديولوجي وسياسي

وعسكري كبير، وأن تحلم بأيام سَعْدٍ طويلة، وبانتصارات كبيرة. لان حكومة الولايات المتحدة، تقود النظام العالمي الجديد، وهي ملتزمة بأمن « دولة اسرائيل » وتفوقها العسكري الماحق على كل العرب، وتطورها الاقتصادي والاجتماعي، واخضاع العرب والمسلمين لبرنامجها. ولكن « دولة اسرائيل » الحقيقية التي تقوم لأول مرة في التاريخ، على كل فلسطين، وبدعم امبريالي دولي، تنسى في نشوة انتصارها الراهن أن « العمالقة » يتكاثرون، وأنهم يملأون الأرض. واذ لاحظ خبراؤها هذا النمو غير العادي، استعجل السياسيون الحشد والتعبئة وتطوير الاسلحة، وتوطيد العلاقات مع الراعي الامبريالي، واعتقدوا انهم بذلك سيضمنون النصر الى الأبد.

هامش -٦-

١- د. أحمد داوود :العرب والساميون والعبرانيون وبنو اسرائيل واليهود، الطبعة الاولى ١٩٩١ ،ص١٠٩و١٣٠ ,١٥٨ ,١٨١ .وهذه الشعوب السبعة .كانت شعباً واحداً، فاليبوسيون والأموريون ،ممن يسمون كنعانيين ،والفرزيون هم الفلاحون ،حسب قاموس الكتاب المقدس .(قاموس الكتاب المقدس ،تأليف نخبة من ذوي الاختصاص. منشورات مكتبة المشعل،بيروت ١٩٨١ ،ص٦٧٥و١٠٥٢-١٠٥٣ .

٢-وكذلك يفعلون اليوم،اعتماداً على « كتابهم » القديم،وعلى « كتابهم الحديث » الذي يؤيدهم فيه كل « العالم المتمدن » .

٣- جواد الحمد : الشعب الفلسطيني ضحية الارهاب والمذابح الصهيونية ،دار البشير للنشر والتوزيع ،١٩٩٥ .

واحمد صدقي الدجاني : صبرا وشاتيلا -الجريمة الاسرائيلية والمسؤولية الاميركية ،دار المستقبل العربي،١٩٨٤ .

٤-توماس ل .طومسون :التاريخ القديم لشعب اسرائيل، ترجمة محمد علي سوداح،دار بيسان ،١٩٩٥ .

٥-خالد القشطيني :مرجع سابق ،ص٢٤٥ .

٦-د .رشاد عبد الله الشامي : القوى الدينية في اسرائيل ،بين تكفير الدولة ولعبة السياسة. سلسلة عالم المعرفة ،١٨٦ ،سنة ١٩٩٤ ،ص١٩-٢٠ .

وخالد القشطيني :مرجع سابق،٢٤٥-٢٤٦ .

٧- خالد القشطيني :مرجع سابق ٢٤٥ .

٨- خالد القشطيني :مرجع سابق ٢٤٤ .

٩-د .رشاد عبد الله الشامي :المرجع السابق،ص٣١ .

١٠- د .رشاد عبد الله الشامي : المرجع السابق، ص٣١ .

١١-خالد القشطيني :المرجع السابق ،ص٢٤٠ .

١٢- خالد القشطيني :المرجع السابق ٢٤٠ .

١٣-د .رشاد عبد الله الشامي :مرجع سابق،ص٣٤ .

واعلان استقلال «دولة اسرائيل» .

Itmar Rabinovich and Jehuda Reinhatz, Ed: Ibid. P.P. 12-15.

١٤-د .فضل النقيب : المرجع السابق،ص٤٥ .

١٥-د .رشاد عبد الله الشامي،مرجع سابق، ص٩ .

١٦- خالد القشطيني ،مرجع سابق، ص٢٤٨ .

١٧-د .رشاد عبد الله الشامي ، المرجع السابق ، ص١٣٩ .

١٨- د .رشاد عبد الله الشامي ،المرجع السابق،ص٧٤ .

١٩- د .رشاد عبد الله الشامي :المرجع السابق، ص٧٤ .

٢٠- خالد القشطيني : المرجع السابق، ص٢٤٨ .

٢١- خالد القشطيني : المرجع السابق، ص٢٤٨ .

٢٢- الصحف (الرأي والدستور) عمان ١٨ / ٥ / ١٩٩٦ .

٢٣- John R. Hinnells (Edt) Dictionary of Religions. Benguin Book 1984. 140-141

وفيما يتعلق بميمونيدس (Maimoniders) (ابن ميمون) الذي أصبح طبيب صلاح الدين، يراجع المرجع عينه ص(١٩٨-١٩٩) . أما ما يُسمى (Halakhah) فيعرفها قاموس الأديان، بأنها : الجانب القانوني من اليهودية، والنصوص التي تتعامل مع القانون اليهودي والطقوس عرفت بأدب « اليهلاكا » واصل الكلمة غير معروف وإن كانت تعني « يمضي » وقد فُسِّرت بأنها تعني الذي يأتي من الماضي، أي القانون التقليدي ص (١٤٠-١٤١).

٢٤- Yehoshafat harkabi:Is rael's Fateful Decisions .I.B.Tauris &COLTD .P.P.148.

وفي الطبعة العربية :قرارات اسرائيل المصرية : .ترجمة منية سمارة ومحمد الظاهر : دار الكرمل للنشر والتوزيع .ص١٧٤-١٧٥ .

٢٥-هركابي : المرجع السابق :الطبعة العربية ،ص١٧٦ ،والطبعة الانجليزية ١٥٠ .

٢٦- هركابي :المرجع السابق (ط.ع) ١٧٧و(ط.انج) ١٥١ .

٢٧- هركابي :المرجع السابق (ط.ع) ١٧٨و(ط.انج) ١٥٢ .

٢٨- هركابي :المرجع السابق (ط.ع) ١٧٨-١٧٩و(ط.انج) ١٥٢ .

٢٩- هركابي :المرجع السابق (ط.ع) ١٧٩و(ط.انج) ١٥٣ .

٣٠- هركابي :المرجع السابق (ط.ع) ١٧٩و(ط.انج) ١٥٣ .

٣١- هركابي :المرجع السابق (ط.ع) ١٨٠و(ط.انج)١٥٣ .

٣٢- هركابي :المرجع السابق (ط.ع) ١٩٠ .

٣٣- هركابي :المرجع السابق (ط.ع) ١٩١و(ط.انج) ١٦٤ .

٣٤- هركابي :المرجع السابق (ط.ع) ١٩١و(ط.انج) ١٦٥ .

٣٥-د.رشاد عبد الله الشامي :المرجع السابق، ص٧٨ .

٣٦- هركابي :المرجع السابق (ط.ع)٢٠٤ . و(ط. انبح) ١٧٨ .

٣٧- هركابي :المرجع السابق (ط.ع) ٢٠٤و(ط.انج)١٧٨ .

٣٨- محمد حسنين هيكل : المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل،ج١و٢ .دار الشروق، القاهرة ١٩٩٦ .

-خالد القشطيني :تكوين الصهيونية ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٦، ص١٧٣-٢٠٦ .

-وريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية : جذورها في التاريخ الغربي ،سلسلة عالم المعرفة، رقم ٩٦,١٩٨٥،ص١٠٦-١٣٦ .

٣٩- هناك دراسات وأبحاث تؤكد أن ما يُسمى برتوكولات حكماء صهيون كتاب مؤلف بهدف اثارة العداء لليهود .وبغض النظر إن كان حقيقياً أم مؤلفاً لهذا الغرض، فان البرنامج الصهيوني العملي الذي نراه أغنى من كل الحقائق والأساطير حول اليهود واليهودية والصهيونية. يُراجع:

بروتوكولات حكماء صهيون ،ترجمة عجاج نويهض ،دار الجليل للنشر عمان ط/١,١٩٨٤،البروتوكولات وتزويرها ص ٣٦-٣٧.

٤٠- Abba Eban:Ibid.P.P.70-99.

Josephus:The Jewish War.Benguin Books,1981.

٤١- توماس ل. تومسون :المرجع السابق ،ص ٢٣١ و٢٦٢.

٤٢- Josephus:Ibid.P.P.149-378.

-U-

على ضوء ذلك، نستطيع ان نقرأ الاستراتيجية الصهيونية وأن نفهمها. وهي لا تُفهم بدون البعد التوراتي الأسطوري، لأنه أصبح جزءاً أساسياً من ايمان اليهودي، ومن تربيته، ما دام يهودياً. فما دام يؤمن بالتوراة، فان فلسطين هي «أرض الميعاد»، وواجب كل يهودي ان يقتل سكانها ويطردهم ويستعبدهم، حسب «مشيئة إلهه»، وتلك هي الشريعة.

واليهود الذين كانوا مهددين بالتمثل والاندماج، في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، أصبحوا مشدودين الى ثلاثة أقطاب متداخلة ومتشابكة: ١- الصهيونية السياسية ٢- الاصولية اليهودية. ٣- «دولة اسرائيل».

ولقد انقلب الوضع، منذ قيام «دولة اسرائيل»، لان مراكز الاستقطاب الثلاثة هذه، باتت تلعب ثلاثة أدوار متداخلة متكاملة، وهي: ١- تعبئة اليهودي الاصولي تعبئة دينية وسياسية، وجعله اكثر ارتباطاً «بنبوآت التوراة» وبدولة: «اسرائيل من الفرات الى النيل»، وهزيمة العمالقة، وقرب مجئ المسيح. ٢-تسييس الأساطير اليهودية، وتحويلها الى صهيونية سياسية، ٣-استقطاب كل اليهود الذين خرجوا على أساطير التوراة، أو آمنوا بالدولة العلمانية، أو ساروا على طريق التمثل أو الاندماج، الى درجة أو أخرى.

وبذلك أحدث هذا الاندماج بين الصهيونية السياسية و« الأصولية اليهودية » أكثر من إشكال. ومن ذلك أن هذه الصهيونية التي ولدت في فرنسا وبريطانيا، ونتيجة تبني شخصيات مسيحية مشروعاً صهيونياً، يعتمد على التوراة، ويخدم أهداف أوروبة المندفعة نحو الاستعمار، لم تستطيع أن تصبح أوروبية إلاّ في العملية الاستعمارية، أي في الغزو، والاحتلال وممارسة القمع الاستعماري، والنهب الامبريالي. أما في الايديولوجيا والثقافة، فقد عادت الى ما قبل ظهور المسيح. وهي تطور توراتيتها بسرعة مدهشة. وهنا نشأ إشكال آخر. وهو يتعلق بأمرين، أولهما أن الدولة الصهيونية التي تتفاقم مشكلة توراتيتها، تزداد ارتباطاً بالغرب الامبريالي سياسة واقتصاداً، سلاحاً وأمناً، ولكنها، وفي الوقت عينه، تزداد « تهوداً »، بما يجعلها « جيتو »، يستعيد التراث التوراتي كله، والطقوس التوراتية كلها.

وفي الوقت عينه، لا يبقى« الجيتو » في اسرائيل، بل يُصَدَّر الى العالم، فيصبح اليهودي، حيث كان، مطالباً بأمرين!

الأول: أن يطبق طقوس التوراة حيث كان. وفي العالم ما يستوعب ذلك، وهو يصبح غريباً في بلاد عطلتها يوم الأحد، لانه من المفروض ان يعطل يوم السبت، وهو يفعل ذلك، حين تتيح له النظم[١].

الثاني :أن يصبح امتداداً لدولة« اسرائيل »، حيث كان، فيُعبيء لمصلحتها، ويدافع عن سياستها، ويحث على زيارتها وتوظيف الأموال فيها، ويهرع لنجدتها في الأزمات، ويقاتل في صفوف قواتها، ويجمع المعلومات لأجهزتها، ويؤسس المنظمات لخدمة هذه القضايا[٢]. ومن لا يفعل ذلك، يتعرض لحملات منظمة من « أحباء صهيون » اليهود وغير اليهود.

وبهذا تخلق الصهيونية السياسية «جيتو» جديداً، لا ينحصر في حي، من أحياء احدى المدن، بل يمتد ليشمل العالم، وليصل إلى اي يهودي في أي مكان. وتدير هذا «الجيتو» الجديد، المتعدد الجنسيات، قيادة الحركة الصهيونية العالمية، وقيادة اليهودية الارثوذوكسية والمنظمات اليهودية الأخرى.

بيد أن هذا هو الوجه الأول من العملة الصهيونية. وهو لايكتمل بلا وجهها الثاني الاستعماري الاستيطاني. واذا كان هذا الوجه الاول مكوناً رئيساً في صميم بنيتها، لا تقوم بدونه، فان الوجه الثاني أيضاً مقوم رئيسي، لا تكتمل إلاّ به. لأن حَمْل التوراة وحدها لا يكفي، ولا يخلق« اسرائيل ». وقد حمل اليهود توراتهم في الشتات، منذ ١٣٣ ميلادية، ورغم ذلك فانهم لم يقيموا « دولة اسرائيل » في أي مكان. وظل هذا الشتات قائماً، حتى جاءت الظروف المناسبة، فقامت دول استعمارية، مثل فرنسا وبريطانيا، وأخذت تفكر باستعمار الوطن العربي، وتجزئته، والحيلولة دون نهوضه. وانبثقت من ذلك فكرة« دولة اسرائيل »، كما تدل كل الوثائق [٣].

وسرعان ما تجاوب قسم من اليهود مع هذه الدعوة التي اجتمع لهم فيها أكثر من حافز. ومن ذلك، ١-زيادة دور اليهودي عامة في الحياة العامة، حيث كان. ٢- زيادة دور رأس المال اليهودي على الصعيد القومي، ومن ثم العالمي، ٣- جمع شتات اليهود ومنع التمثل والاندماج.

كان وجود قورش جديد، يحمل مشروع إقامة الدولة. ويفرضها بالقوة ضرورياً، كما كان حين حمل قورش الثاني الفارسي (٥٥٨-٥٣٠) جماعة

من الناس، لا علاقة لهم بفلسطين، وأو كل لهم بناء دولة، وحماهم من « سكان الأرض »، وهذا ما فعله خلفاؤه، حتى مجئ الرومان.

وكان على المستوطنين القادمين من أشتات الأرض، ان يثبتوا قدرتهم الاستعمارية الاستيطانية، وإن يَلتَزموا بدور، يجعل هذه القوى الامبريالية، مقتنعة بوجود « دولة الاستعمار الاستيطاني »، وحريصة على تمويلها وتَسليحها وحمايتها.

ولذلك، فان هذا الدور وحده، والمكاسب التي يحققها لذوي المصلحة، هو الضمان الوحيد للبقاء. وبناءً عليه اتحد الوجه التوراتي القائم على الاحتلال والقتل، بالدور الاستعماري، ليغطيه ويبرره، ويعطي مبرراً دينياً لعملية استعمارية دموية. وهكذا تصبح عملية إبادة العرب عملية مقدسة، تدافع عنها دول عظمى، وضعت الميثاق العالمي لحقوق الانسان، وتنظر اليها نظرة طبيعية قطاعات من الرأي العام العالمي، وكأن ما يجري « ذَبْحُ أضاحٍ »، بشرية في الطقوس الوثنية القديمة.

وتعرف القيادات في الدول الامبريالية، وفي العالم، أن القوى العسكرية التقليدية وغيرالتقليدية التي تعدها « دولة اسرائيل »، تستهدف إخضاع العرب، وأن كل مهاجر يأتي، ينضم الى جيش المستعمرين الذين يحتلون بيوت العرب، ويزرعون أرضهم، ويشربون ماءهم، ويجنون ثمار شجرهم، والذين يُسهمون في الحروب المقبلة. ومع ذلك، فان« العالم الامبريالي »، معني باستمرار العملية، ومعنيٌ بحمايتها، وبتنظيم سيرها، حتى لا تعرقلها أزماتها. ولذلك، تدجج « دولة اسرائيل » بكل أسباب القوة، وتُفرض على

العرب كل أسباب الضعف، ويُطلب من العرب أن يسلموا لهذه الفرق الاستعمارية، وأن يسموا ذلك سلاماً.

وهذه العملية معروفة في تاريخ الاستعمار الحديث، واسمها الرسمي، بالانجليزية "Pacitication". وهي تعني إيصال امة الى حالة سلام مع القوة التي استعمرتها، بحرمانها من امتلاك القوة، وهذا ليس سلاماً، ولا علاقة له بالسلام(٤).

المهم أن يُسمي «الخاضعون» هذه العملية سلاماً، وأنْ يُلغى البحث عن السلام الذي يعني انسحاب الغزاة، وإقامة سيادة الأمة على أرضها، وأن يَعْترف«الخاضعون» بحق «سلطة الاحتلال» في ممارسة دور سلطة شرعية.

وقد سَمَّت الدول الاستعمارية هذه العملية «عملية تمدين»، يقوم بها «الجنس الأبيض» لمصلحة البشرية. وظل الأمر كذلك، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، حين أخذت تسمية أخرى، وهي تكريس قيم الحرية والديموقراطية وحقوق الانسان، في مواجهة النازية والفاشية والشيوعية والقومية. ومازالت تحمل هذا الاسم، رغم الجرائم التي ترتكب، وتتنافى مع كل القيم التي يجري الحديث عنها.

وتشارك الصهيونية اليوم في هذه العملية. فتعلن «اهتمامها الجدي» بالتقدم والتعاون والديموقراطية والسلام!. وهذا بالطبع، ليس من نهج التوراة. لان ا لتوراة تجعل لسكان الأرض ثلاثة خيارات فقط، وهي القتل أو الهرب او العبودية. أمّا اليوم، فان بن غوريون وبيغن ورابين وبيريز ونتينياهو، يطرحون عليهم الخيارات عينها، ولكنهم يضيفون أنهم يريدون أن يجعلوا الأحياء من

اللاجئين « والخاضعين » عبيداً « سعداء »، يعملون في حقول السادة، ويأكلون من فتاتهم، ويحتفلون كل يوم، لأن السادة ابقاوهم أحياء. واذا ما استخدم السادة العصيَّ أو الرصاص او النابالم، فان ذلك مجرد عقوبة للآبقين. وعلى سائر المشاهدين أن يعلنوا فرحتهم لأن السادة يعاقبون الآبقين !. وأيّ عقاب، مهما كانت قسوته، أمر طبيعي، لا يستوجب السؤال. لان « أولي الأمر » من واجبهم أن يُعاقبوا، وأن يُخضعوا الاشقياء والآبقين.

ولذلك ارتكبت القيادة الصهيونية جرائم متعددة الأشكال، بما في ذلك ارتكاب مجازر جماعية ضد مدنيين، أو أسرى حرب، ولم تَرَ في ذلك مشكلة تستحق مجرد التوقف. واذا كانت هذه الجرائم بأوامر توراتية، في أساطير التوراة، فانها مهمة نظامية في « اسرائيل » اليوم. وهي كذلك لمدى كل القوى الاستعمارية، من البرتغاليين والأسبان الى الانجليز والفرنسيين والألمان والاميركيين.

ولا يجوز أن ننسى ان الرئيس ترومان، أمر بالقاء القنبلة النووية على هيروشيما، رغم ما قدمه المستشارون والفيزيائيون من بدائل، ومن تحذيرات ،لأن ترومان رأى وجوب انتهاء الحرب بالسرعة الممكنة لحفظ ارواح الاميركيين« ولم يَر ترومان أسباباً موجبة لعدم رمي قنبلته على هيروشيما وناغازاكي »(٥).

فما الذي يفعله قادة « اسرائيل » اليوم غير هذا؟. انهم يقتلون بكل الوسائل، ويعدون قنابلهم النووية (٦).

وهذا الذي يجعل قادة « الدول الامبريالية »، وعلى رأسها حكومة الولايات المتحدة الاميركية، لا يمنعون أي تجريم للتصرف الصهيوني فقط، بل يحمون سياسة « القوة الصهيونية »، ويمدون :« دولة اسرائيل » بالقوة اللازمة، ويحرضونها على « دور استعماري نموذجي »، في الحرب والسياسة.

والصهيوني المعاصر، الراهن، الحقيقي، يتذرع « بمذابح اليهود »، وهو يرتكب مذابحه، ويحاول أن يجعل منها « حرائق لله » تستحق التقدير، ولا تستوجب « الادانة »، ولذلك ينشر شبح « مذبحته » وتشرده عبر التاريخ، ويجعل لما يسميه الهولوكست (Holocaust) بُعْداً تاريخياً مستمراً. ولذلك يكتب بيريز :« خمسون جيلاً من المذابح الجماعية، بلغت قمتها في مجازر الهولوكست وتعذيباتها »(٧).

وهناك في العالم كله الآن « احتفالات » خاصة بما يسمى الهولوكست، تنشر الصحف أخبارها. ويزور اوشفتز (Auscheitz) كل سنة اكثر من ستماية ألف زائر (إنسان). ويروي د. مارك أليس (Dr. Mark Ells) أنه ذهب في وفد الى هناك، « كان هدف وفدنا »، كما يقول :« المساعدة في توسيع قصة الآلام التي قُدّمت لهؤلاء الزوار، مؤكدين للمرة الأولى أن ما يزيد عن تسعين بالمائة من الذين قتلوا في اوشفتز كانوا يهود »(٨).

وفي الوقت الذي تُحوّل فيه « المذابح اليهودية » الى أساطير، مثل أساطير التوراة الحالية عن « ذبح » شعوب الكنعانيين السبعة، ترفض الصهيونية أي بحث جدي علمي في موضوع المذابح، وتعمل على اخراج القضية من ميدان البحث العلمي. وتمارس المنظمات الصهيونية، و« دولة اسرائيل » نفوذها،

لاصدار قوانين تجرّم ذلك، حتى في المانيا وفرنسا وسويسرا، ومن ثم محاكمة الذين يحاولون تحدي هذا القرار، مثل الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي[٩].

أمّا بالنسبة للجرائم التي ترتكبها الصهيونية، في العالم، أو ترتكبها «دولة اسرائيل»، أو الجماعات الدينية اليهودية، فإنها، لا يجوز ان تكون موضع بحث، أو قرارات في المؤسسات الدولية، وهي دائماً قضايا صغيرة «وتافهة»، لا يجوز ان تؤثر في العمل من أجل السلام، أو أن تمنع العرب من قبول المبادرات الصهيونية السلمية.

هامش-٧-

١-إن اليهودي يعطل في سورية يوم السبت، لان العطلة الرسمية يوم الجمعة، ولكن اليهود يعطلون يوم السبت والمسيحيين يوم الأحد. وقد كتب بيتز سيخروفسكي كتابه: غرباء في بلادهم أو وطنهم ليتحدث عن اليهود الشباب في المانيا، وعطلة الأحد:

Peter Sichrovsky: Strangers In THeir Own Land Young Jews In Germany and Austria To day. Penguin Book, 1987.

٢- لي اوبرين: المنظمات اليهودية الاميركية ونشاطها في دعم اسرائيل ،مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

٣- خالد القشطيني :مرجع سابق، ص١٦٢,١٧٣,١٩٠.

٤- The oxford dictionary of current english. oxford university press,1987.P.P.526.

وترجمة (PACIFY) كما يلي: «أن يوصل (بلاداً الخ) الى حالة سلام».

٥- Thomas G.Paterson,J.Garry Clifford and Kenneth J.Hagan:American Foreign Policy .Ahistory /Since 1900 .D.C.Heath And Company.1977.P.P.432.

- وتاكيشي ايتو، ترجمة اكيرا اكويانو، مراجعة محمد عبده: هيروشيما ونغاساكي. دار الشروق، القاهرة ١٩٩٤.

٦- أحمد عوض :معطيات جديدة حول الأسلحة النووية الاسرائيلية،مجلة الأرض،دمشق،العدد الثاني عشر،كانون الاول،١٩٩٥،ص٤٣-٥٧.

وصبري جريس وأحمد خليفة (تحرير) :دليل اسرائيل العام: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سنة ١٩٩٦،ص(٣٠٠- ٣٠٥).

Steve Rodan: Clear and Present Option: Tht Jerusalem Post Maeazine 7/6/ 1996. p.p.18-20.

٧- Shimon Peres :Ibid.P.P.183

٨- Marc H.ellis: Ending Auschwits and Renewing Palestin, Middle East Policy, volume1, 1992. Number 4. P.P. 55-67.

٩-روجيه غارودي: الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية ،دار الغد العربي ،القاهرة.

- ٨ -

وهذه الدولة التي يحتضنها « العالم المتمدن »، عالم الدفاع عن الديموقراطية وحقوق الانسان الدولة تتسم بما يلي :

أولاً : انها قامت على أساس الاحتلال المسلح، بنقل جماعات من المستوطنين، بهدف إقامة دولة، واعدادهم وتسليحهم للقيام بالمهمة. والعملية مستمرة، منذ مائة عام، وما تزال. وهناك مستوطنون جدد يأتون، ومشاريع استيطان تقوم، ومخططات توضع لمزيد من التوسع على طريقة « احراز المباحات »، ولكن بدون الشروط القانونية والشرعية.

واذا كان شعار الصهيونية الأول، أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض، فان الحركة الصهيونية، ما زالت مستمرة في مشروعها الاستعماري الاستيطاني، رغم كل الحروب التي خاضتها مع « شعب الأرض ». وهي ما زالت ترفض ان ترى هذا الشعب، أو أن تعترف بوجوده، كأية حركة استعمارية استيطانية. واذا كانت التوراة، تصف هذه الأرض بأرض كنعان، فان اليهود المعاصرين، يرفضون ان يعترفوا بوجود سكانها او باسمها القديم، أو باسمها المعروف في الجغرافيا والتاريخ.

وسيظل هدف الصهيونية أن تُصَفّيَ هذا الشعب، كما فعل المستوطنون البيض، في الولايات المتحدة الاميركية مع الهنود الحمر، لأن الاستعمار

الاستيطاني، لا يبقى ما دام شعب الأرض في الأرض. وهذه تجربة الجزائر، وتجربة جُنوب افريقيا خير دليل. وهي تجربة كل الفتوح في التاريخ، من الحثيين والعيلاميين والفرس والروم، الى العرب.

ثانياً: أنها قامت على أساس نظرية دينية عرقية، تختلف عن أية دولة في العالم القديم أو الحديث. لأن هذه الدولة، تعتبر أن كل يهودي، من حقه، أن يحمل جنسيتها، حيث كان، وأن يصبح مواطناً، بمجرد أن تطأ رجلاه أرضها، وأن يكون له الحق في أن يُزَوّد بالسكن والعمل، لأنه يهودي، ولأنه من دين مُعيّن، «وعرقَ» مُعين.

وعليه، فان «دولة اسرائيل»، تقوم على حق العودة، والمواطنة تقوم على «حق العودة». و«دولة اسرائيل» هي رسمياً «دولة اليهود» أينما كانوا»[1].

وهذا الحق، حق العودة، واكتساب المواطنة، حق فريد، لا يوجد مثيل له، وهو حق مكتسب، بموجب«قانون اسرائيلي»، وليس بموجب القانون الدولي[2].

إن«قانون العودة» الذي تقوم على أساسه«دولة اسرائيل»، لتكون«دولة اليهود» المنفيين العائدين، يجعلها دولة دينية عنصرية مغلقة، تعطي لمستوطنين حق العودة والامتلاك وطرد السكان الأصليين وممارسة السيادة، وتحرم المواطنين من الحق في المواطنة، في أرضهم وممارسة سيادتهم. وهذا القانون يتناقض مع كل القانون الدولي.

ثالثا :أنها تواصل ممارسة سياسة«دينية عرقية»، لأنها «دولة العائدين»القومية، وهي لذلك: «تجعل المنظمة الصهيونية العالمية/الوكالة

اليهودية جزءٌ متكاملاً مع حكومة اسرائيل، أو وكيلاً معتمداً من الناحية القانونية لها »[٣]. والمنظمة الصهيونية /الوكالة اليهودية معنية باليهود فقط، من بين سكان « دولة اسرائيل »، أو مواطني العالم، وليست معنية بالعرب، سكان الأرض الذين لبثوا، أو طردوا.

ولأن « حكومة اسرائيل » حكومة يهودية، فانها تصدر القوانين التي تعطي كل الحقوق لليهود، وتحرم العرب، حتى من حقهم في الأرض التي ما زالوا فيها، وما زالوا يعيشون منها. وتُصدر القوانين، أو تُستَخدم قوانين الانتداب البريطاني لتحقيق الغايات المنشودة [٤].

ورغم ذلك، فان« دولة اسرائيل» دولة ديموقراطية في نظر اليهود الصهيونيين. وليس هذا غريباً. ولكنها « دولة ديموقراطية » في نظر « الدول الديموقراطية »، وقطاعات واسعة جداً، من الرأي العام في هذه الدول الديموقراطية.

ويجدر بالذكر ان الجمعية العامة للأمم المتحدة اتخذت قرارها رقم: ٣٣٧٩ الذي قرن الصهيونية بالعنصرية، مذكراً بالقرارات السابقة التي دانت العنصرية، وطالبت بإزالة كل اشكال « التمييز العنصري »، وبقرار مؤتمر وزراء خارجية عدم الانحياز، الذي عقد في ليما ٢٥–٣٠ آب ١٩٧٥، والذي: « دانَ بشدة الصهيونية، لانها خطر على سلام العالم وأمنه، ودعا كل البلاد لمناهضة هذه الايديولوجية العنصرية والامبريالية »، وقرر: « أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري »[٥].

وقد خطب في أحد الاجتماعات المقررة لمناقشة مشروع القرار هذا حاييم هارتزوج(Chaim Herzog) ، فأشار الى أن مشروع القرار هذا يبحث ليلة العاشر من تشرين الثاني، في الذكرى السابعة والثلاثين لهجوم :« قوات هتلر النازية الصاعقة المنسق على الجالية اليهودية في المانيا »، التي « حرقت الكنس في كل المدن، وجعلت من الكتب المقدسة، ومخطوطات القانون المقدس والتوراة مشاعل في الشوارع » .

واعتبر مشروع القرار هجوماً على الصهيونية، « لأن هذا الهجوم، لا يمثل هجوماً معادياً لإسرائيل، من طراز شرير جداً فقط، ولكنه أيضاً هجوم في الأمم المتحدة على الدين اليهودي، وهو واحد من أقدم الأديان الراسخة في العالم، دين أعطى العالم قيم التوراة الإنسانية، والذي انبثق منه دينان عظيمان :المسيحية والإسلام » .

وأشار أنه لم يأتِ ليدافع عن قيم الشعب اليهودي، لانها لا تحتاج الى دفاع، وأضاف :« لقد جئت هنا لأندد بالشرين الكبيرين اللذين يهددان المجتمع عامة، ومجتمع الأمم المتحدة خاصة، وهذان الشران هما الحقد والجهل »(٦) .

ولأن « دولة اسرائيل » أثبتت، منذ ١٩٧٥ أنها دولة عنصرية استعمارية، وقامت بحروب وعمليات اعتداء واسعة، وواصلت سياستها العنصرية، ضد سكانها العرب، وحتى اليهود العرب والأفارقة، فان حكومة الولايات المتحدة، أصرت على إلغاء هذا القرار، كما أسلفنا.

وكَرّست الجمعية العامة للأمم المتحدة موقف « دولة اسرائيل » في النظر إلى اعمالها، وموقف حكومة الولايات المتحدة الاميركية من « دولة اسرائيل »، رغم كل السجل الاستعماري العدواني الصهيوني.

فماذا نرى في ذلك؟.

إننا نرى في ذلك أمرين

الأول: أن كل القوى الاستعمارية الاستيطانية، غطت طبيعتها العدوانية، بادعاء القيام بخدمة المدنية: « دور الرجل الأبيض »، اما « دولة اسرائيل »، فإنها تنجز « وعد يهوه »، وهو « إله اسرائيل » الخاص مهما كان اسمه، وتحقق المدنية في « عالم متخلف »، وتعمل للتعاون والسلام، من خلال « عناقيد الغضب » الدائم؟.

ولذلك، فانها تدافع عن دورها الديني والدنيوي بشجاعة، كما فعل حاييم هارتزوج في الأمم المتحدة، وكما فعل قادة الاستعمار الاستيطاني في كل مكان.

الثاني: أن الدول الامبريالية، التي قادت الحروب الاستعمارية، حروب الفتوح والنهب والقتل، ترى في النمط الصيهوني ابنها الشرعي، الذي يجدد شبابها، وهي تشيخ، ولذلك تعطيه كل بركتها العلنية. وهي تحيا به، وهو يحيا بها.

وعليه، فان هذا التأييد الغربي، ليس غريباً، إنه تعبير عن التزام الدول الامبريالية بالسياسة الاستعمارية -الاستيطانية، التي تمثل « دولة اسرائيل » حسب كل الدلائل، واحدة من تفريخاتها العادية.

واذا كانت ممارسات «اسرائيل» تكشف زيف دعاوى دورها الديموقراطي والتمديني، فان ممارسات «دول الديموقراطية وحقوق الانسان»، تكشف حقيقة دعاواها. وكان قيام «دولة اسرائيل» وتطور قوتها، نتيجة ما قدمته هذه الدول لها، دليلاً قاطعاً على طبيعة سياسة هذه الدول، رغم كل دعاواها في الحديث عن الديموقراطية وحقوق الانسان.

والفارق بين قرار ربط الصهيونية بالعنصرية، وقرار إلغائه، هو الفرق بين نفوذ الامبريالية عامة، والاميركية خاصة في الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٧٥، ونفوذها سنة ١٩٩١. وهو ما يعني ان استشراس السلوك العنصري العدواني، لدى الصهيونية، ينمو داخل «بيت بلاستيكي» اميركي، وفي مزرعة السياسة الاستعمارية العنصرية، مهما كانت الطبيعة العدوانية العنصرية الكامنة في الصهيونية.

هامش -٥-

١– Roselle Tekiner: Zionism And Racism. American Arab Affairs. Summer 1990.Number 33. P.P. 35-41.

٢– Roselle Tekiner:Ibid.P.P.37

٣– Roselle Tekiner :Ibid .P.P.40

٤–درويش ناصر: الفاشية الاسرائيلية ،دار الجليل، سنة ١٩٩٠ .

Uridavis: Israel- An Aprtheid State Zed Books Ltd. 1987.

٥– Itmar rabinovich and Jehuda Reinharz (ED): Ibid.P.P.310.

٦– Itmar rabinovich:Ibid.P.P.311

-٩-

والآن هذه هي « دولة اسرائيل » في برامجها، وأفكار قياداتها، وتصريحات ساستها، وفي ممارستها العملية، فهل يغيِّر حديث السلام من ذلك شيئاً؟.

إن دراسة برامج حكوماتها، منذ ١٩٤٨، أو أحزابها التي قادت وحكمت، أو التي تتهيأ للقيادة والحكم، تؤكد ما يلي:

أولاً: أن « دولة اسرائيل » دولة عسكرية، وتعتبر بقاءها دولة عسكرية شرطاً لوجودها. ولذلك، فانها بما يُسمى السلام، وبدونه، تحرص أن تبقى دولة عسكرية متفوقة، في مواجهة الدول العربية جميعاً، مهما كانت التطورات، وسواء كانت الحرب على جبهة واحدة، أو على جبهات، وأن يكون التفوق كبيراً، الى الدرجة التي لا تجد فيها « دولة اسرائيل » عائقاً من تدمير القوى العربية كلها، في أقصر وقت ممكن، وبأقل الخسائر الممكنة.

وهذا ما تعبّر عنه خططها، وأدبها السياسي، وبرامجها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعسكرية.

التفوق العسكري النوعي، عماد السياسة الصهيونية، وهو جوهر استراتيجيتها العليا المعلن الذي يظهر واضحاً جلياً في أحاديث الحرب والسلام.

وهذا ما يجعل ايهود براك، رئيس الاركان الصهيوني السابق، ورئيس حزب العمل الحالي، يوضح ذلك في محاضرة له، بعد توقيع اتفاق اوسلو، وهو يتساءل عن الأسباب التي قادت الى «عملية السلام»، ويجيب، أن هذه الاسباب تتلخص حسب رأيه «المتواضع» فيما يلي:

١- «أولاً، وقبل كل شيء آخر- قوة الجيش الاسرائيلي وانجازاته في الحروب». ويذكر منها حرب يوم الغفران خاصة، «فإننا تمكنا، بعد ثلاثة اسابيع من الحرب ان نحاصر الجيش المصري الثالث، وان نكون قريبين من دمشق والقاهرة...».

٢-... «التعاظم المستمر في قدرات الجيش الاسرائيلي. وهذا يشمل تعاظم تلك القدرات على امتداد الاعوام الماضية، وأيضاً ما هو متوقع على هذا الصعيد في المستقبل». ثم يذكر براك ما تملكه «دولة اسرائيل» من أسلحة.

٣- «... الاحساس القائم في وعي العرب، بأن اسرائيل تمتلك أسلحة غير تقليدية».

٤- العلاقة «المميزة مع مختلف الادارات الاميركية في الجيل الأخير».

ويقول براك: «نحن في خضم مسار تعاظم واسع جداً في جميع المجالات- طائرة المستقبل، منظومة قوة سلاح البحرية، مضاعفة عدد طائرات الهليوكبتر من طراز «أباتشي»... ونحن نواصل انتاج الدبابة ميركافا، وناقلات جنود مدرعة ثقيلة، ونواصل زيادة قدراتنا في الأسلحة الدقيقة

والمتطورة التي تنتجها صناعاتنا المحلية». والهدف من ذلك، كما يقول براك «تحقيق فعالية عالية جداً لقوتنا القتالية» [1].

ولما كان العدو الصهيوني، قد انتهج هذه السياسة، منذ وعد بلفور، فانه واصل ذلك بقوة وفعالية، منذ قيام «دولة اسرائيل». وهو الآن يتابع ذلك ولذلك، قال وزير الدفاع الاميركي ليس آسبن في محاضرة له: «تتمتع اسرائيل بتفوق عسكري واضح على أي عدو محتمل- أو تحالف معاد محتمل، ولئن كانت اسرائيل تشكو من عيب القلة العددية، فإنها تتمتَّع بتفوق نوعي، وبجيش رفيع التدريب والحوافز» [2].

ولا نستطيع ان نتحدث عن التفوق العسكري النوعي لدى دولة العدو الصهيوني، دون ان نتحدث عن أسلحة العدو النووية.

وهنا تنتهج دولة العدو، ما يمكن ان يُسّمى «تقليد الغموض»: «حيث لا تؤكد ولا تنفي ان لديها طاقة نووية». ولذلك فانها تتعمد الايحاء بأنها تملك هذه القوة، دون تأكيد ذلك رسمياً.

ويؤكد الخبراء الدوليون، كما تقول مجلة جروسلم بوست أن لدى «دولة اسرائيل»: «مادة كافية لصنع ما يصل الى مائة قنبلة نووية بسرعة».

وترفض دولة العدو حتى الآن أية رقابة على منشآتها النووية [3].

غير أن هذا لا ينفي وجود «خيار نووي» لدى العدو بل يؤكده، كما تؤكد ذلك الدراسات والمعلومات المنشورة.

وهذه النزعة العسكرية تجمع سمتين متناقضتين، ولكنهما متكاملتان.

الأولى: نزعة عَرْضية، يتجلى فيها قصد التظاهر بالقوة، في كل الميادين: قوة الجيش، تطور الأسلحة، امتلاك قوة السحق والمحق.

الثانية: نزعة امتلاك المنهج العلمي لبناء القوة، واعتماد السرية في كل ما يحتاج الى السرية، وتوظيف المفاجأة في كل المجالات أيضاً.

ويستخدم كل من السمتين لخدمة الأخرى.

وقد لمس العرب جميعاً ترابط السمتين، وعليه فان نزعة عرض القوة، لا ترتبط بالادعاء، وسياسة بناء القوة، سياسة غير جوفاء. وقد بات العربي يعرف ذلك، منذ ١٩٤٨. وزاد من خطورة الأمر أن العربي مقتنع، بأن السياسات العربية كلها على نقيض ذلك، حيث يتغلب الادعاء.

وقد صار هذا الوضع تحدياً يومياً لكل عربي. لان «حكومة اسرائيل» وكل قادتها وأحزابها وصحفها وكتابها، يواجهون العرب به يومياً، وفي كل نشرة أخبار، وفي ثنايا الصحف. ولا يقف الأمر، هنا، لأن «حكومة اسرائيل»، تصدمنا بهذه الحقيقة، كل فترة وأخرى، بعملية عسكرية كبيرة أو صغيرة، حسب الحاجة.

ثانياً: إن «دولة اسرائيل» دولة استيطان، فلقد بدأت من عملية استيطان، في أواخر القرن الماضي. وارتبطت هذه العملية بعودة اليهود، من كل انحاء العالم الى فلسطين، بهدف تكوين أغلبية سكانية، ومن ثم إقامة دولة.

ولقد ظلَّ تدفق المستوطنين مستمراً، وان مَرّ بمراحل. وكانت الأولى، منذ أواسط القرن الماضي، حتى سنة ١٨٨٠، ولم تكن تبدو هجرة سياسية،

وان كانت في الجوهر كذلك. وكانت الثانية، منذ ١٨٨١ حتى ١٨٩٦، وقد اتخذت طابعاً سياسياً، وان لم ترتبط بمشروع متكامل. وبدأت الثالثة، سنة ١٨٩٧، مع مؤتمر بال، واعلان مشروع« الدولة اليهودية »، وانتهت سنة ١٩١٦، أمّا الرابعة، فبدأت، سنة ١٩١٧، مع اعلان وعد بلفور، وتكريس مبدأ الحماية الدولية للمشروع الصهيوني، حتى سنة ١٩٤٧. وبدأت الخامسة، منذ قيام الدولة، حتى الآن (١٩٤٨-١٩٩٦).

ويقوم الاستيطان على أساس حق اليهود بالعودة، من كل انحاء العالم، ليستقروا في فلسطين، أو فلسطين التاريخية، اي فلسطين وشرق الأردن، أو « أرض الميعاد »، وهي أوسع من ذلك.

وعليه، فان الهجرة التي بدأت أواسط القرن الماضي، ما زالت مستمرة.

وقد وفد الى فلسطين ما بين ١٨٤٥ و ١٩٤٧ حوالي ستماية ألف. فقد كان في فلسطين سنة ١٨٤٥ اثنا عشر ألفاً، صاروا سنة ١٨٨٢ أربعة وعشرين، وسنة ١٩١٨ خمسة وخمسين، وسنة ١٩٣٩ أربعمائة وخمسين وهكذا [٤].

وأصبحنا اليوم أمام أربعة ملايين ونصف، وما زال باب الهجرة مفتوحاً.

ومادام باب الهجرة مفتوحاً، فهناك حاجة للاستيلاء على أراضٍ جديدة، ومياه جديدة، وحاجة الى مدى حيوي أوسع.

وهذا يطرح أمرين:

الأول: بناء مستوطنات جديدة في الأراضي المحتلة، وطرد السكان العرب أهل البلاد.

والثاني: توسيع مدى الهيمنة والاحتلال لتوفير المزيد من الأرض والمياه والمدى الحيوي.

والذي يدرس تطور الاستيطان، يلمس كيف تطور، قبل قيام الدولة الصهيونية، ليبلغ حوالى ستماية ألف، سنة ١٩٤٨. ثم ليقفز، فيزداد ما بين ١٩٤٨-١٩٥١، فيبلغ الضعف، بوصول ٦٨٦,٧٤٨ في أربع سنوات، وليكون عدد المهاجرين ٢٥٦,٥٣٩ ما بين ١٩٦٨ و ١٩٧٣، و ١٥٦,٨٠٦ ما بين ١٩٧٤-١٩٧٩، و ٢٠١,٠٧٣ ما بين ١٩٨٠-١٩٩٠، ثم تدفقت موجات الهجرة من الاتحاد السوفياتي السابق [٥].

وتضغط هذه الهجرة المتواصلة على بقايا المواطنين العرب، في الأرض المحتلة ١٩٤٨، وهي حدود ما يُسّمى «دولة اسرائيل». ولذلك فهناك مشروع لتهويد مدينة يافا [٦]. و«بعد عام، بعد عامين، ويكون قد مَرّ جيل. وقد لا تكون هناك يافا». وهو مشروع، ينفذه رئيس بلدية تل أبيب، منذ بدايات الثمانينيات. وقد وصفته اللجنة الشعبية للحفاظ على الكيان العربي في يافا، بأنه «مخطط عنصري يتسم بالتمييز. وما هو إلا نهب ما تبقى، ويحمل في طياته خطراً كبيراً على كيان مجتمعنا العربي في يافا» [٧].

ولقد كان سكان يافا العرب مائة وعشرين ألفاً سنة ١٩٤٨، أمّا اليوم، فليس هناك إحصاء رسمي. ولا يزيد الذين سجّلوا للاقتراع عن خمسة آلاف شخص، مع أن التقديرات تتراوح بين ستة آلاف واثنين وعشرين ألفاً، يسكنون حيين هما الجبلية والعجمي، ولا يسمح لهم بتجاوز الحيين. ويافا التي وصِفت يوماً، بأنها عروسها فلسطين: «أصبحت اليوم ضاحية قديمة

مهملة ومنسية من أحياء تل أبيب، يعيش سكانها الأصليون العرب في مناطق محاصرة، تأكلها الجرافات»[٨].

ويجري في الجليل، ما جرى في كل فلسطين. ولقد ظلت المحاولات دائبة لتحقيق هذا الغرض، ولكنها لم تنجح. وتأتي اليوم عملية التهويد لتحقيق الغايات التالية. أولاً: «توفير اكثرية سكانية يهودية في الجليل، ومنع قيام أكثرية عربية فيه». ثانياً: «انشاء توازن ديموغرافي بين «الألوية الوسطى» :تل أبيب والوسط والقدس وحيفا، وبين «الألوية الخارجية» الشمال والجنوب»[٩]. ثالثاً:ضمان سيطرة أمنية في مواجهة السكان العرب، ومواجهة أي تحرك عسكري عربي مقبل من الشمال. رابعاً: توفير مستوطنات للمهاجرين الجدد.

وتتضمن هذه العملية : «مصادرة الأراضي والاستيلاء التام عليها»، «ونقل المجموعات السكانية العربية من أراضيها»[١٠]، وتقليص مساحة ما يملكه العرب من الأرض، وتعميم البنية اليهودية في كل المناطق.

ويظهر الجدول أدناه تطور عدد السكان العرب واليهود ما بين ١٩٤٨-١٩٨٨ في الجليل: (الجدول)[١١].

وقادت عملية التهويد في الجليل، منذ ١٩٤٨ حتى الآن، الى ان يفقد سكانه العرب ٩٠٪ من أراضيهم. ولذلك لم يبقَ للفرد الواحد إلا معدل نصف دونم من الأراضي الزراعية. وبات للفرد العربي الواحد ٤٩٪ من الغرفة. بينما يملك المستوطن ١٦ر١ من الدونم، ويشغل ٩٢٪ من الغرفة. وكان من نتيجة مصادرة الأراضي أن تحول ٧٨٪ من العمال الفلسطينيين الى العمل المأجور[١٢].

ومنذ ١٩٨٩، وتدفق الهجرة الجديدة ،والمساعي دائبة لاسكان خمسين بالمائة من المهاجرين الجدد في منطقتي الجليل والنقب [١٣].

وينطبق هذا النهج على القدس[١٤]، وغزة [١٥]، والضفة الغربية [١٦].

وهناك بالاضافة الى ذلك الطرق الاستراتيجية، والطرق الالتفافية [١٧].

وتظل الهجرة والاستيطان من الركائز الأساسية للسياسة الصهيونية. ولذلك قالت جولدمئير في ٢١ / ١ / ١٩٦٧، بأن عنصري القلق الرئيسيين هما: «الانخفاض المقلق في الهجرة، ومخاطر الاندماج المسلطة على الجاليات اليهودية في البلدان الميسورة»[١٨].

وفي الرابع والعشرين من ايلول، سنة ١٩٦٧، عقد المجلس الصهيوني الاوروبي مؤتمراً في بال بسويسرة، بمناسبة مرور سبعين عاماً على مؤتمر بال، حضره رابين، ممثلاً لحكومة «اسرائيل». وقد خطب رابين في المؤتمر، فشدد علي أهمية الهجرة : «لتقوية وتدعيم اسرائيل»، وأكد أنّه: «حين يكون لدى اسرائيل ٤ أو ٥ ملايين يهودي، لن يقدر أي شيء أن يؤذيها، أو يثير الشك في وجودها». وأضاف رابين مشدداً على وجوب إبقاء «رابط قوي وحميم» بين اليهودية العالمية و«اسرائيل»، ومؤكداً أنه طالما وجد هذا الرابط، «سوف تزدهر اسرائيل وتتضاعف قوتها»[١٩].

وهذا ما جعل الهجرة والاستيعاب بنداً أساساً، من بنود توجهات حكومات نتنياهو الجديدة، كما هي حال برامج كل الاحزاب والحكومات.

وقد جاء في هذه التوجهات حول الهجرة والاستيعاب:

١ – «إن الحكومة، وهي تقر بالمصير المشترك والنضال الموحد في سبيل الشعب اليهودي، ومن أجل تحقيق الهدف الرئيسي لشعب اسرائيل: حشد الشعب اليهودي في وطنه، ستعمل بتصميم لزيادة الهجرة من كل البلدان، لانقاذ اليهود المضطهدين، وخلق الظروف الاجتماعية والاقتصادية، لاندماج سريع وناجح للمهاجرين.

٢ –إن الحكومة ستضع الهجرة والاستيعاب في رأس أولوياتها، معتقدة بأن العمل الفعّال من جانبها، سيحول إسرائيل الى مركز يجذب المهاجرين من البلدان الغنية والفقيرة. وستبادر الى طرح برنامج استراتيجي، بعيد المدى، لتبلغ بطاقة الهجرة، من مختلف البلدان، بما يصل المليون في العقد القادم»[٢٠].

نحن اذن ما زلنا، امام هجرة متدفقة، ستصل مليوناً في العقد القادم، رغم وصول اكثر من نصف مليون مهاجر، من الاتحاد السوفياتي السابق، خلال السنوات الماضية، منذ ١٩٨٩. ومادامت هنالك عواصف وزلازل سياسية تهز العالم، فما الذي يمنع الهجرة ان تزداد تدفقاً؟. واذا كان «يهود اسرائيل»، لا يتجاوزن ٣٠٪ من يهود العالم، فما الذي يمنع ان تجذب «سياسة دولة اسرائيل» المزيد؟.

ثم ما الذي يعنيه ذلك، على صعيد احتلال المزيد من الأرض، والحاجة الى توسيع الإطار الأمني والمدى الحيوي؟. واذا كانت «دولة اسرائيل»، قبل ان تقوم، قد خططت لهزيمة العرب كلهم، ونجحت سنة ١٩٤٧–١٩٤٩؟، فماذا سيكون مخططها حين يصبح عدد سكانها خمسة ملايين او ستة؟، أو حين يصبح عدد سكانها ثمانية أو عشرة ملايين، سنة ٢٠٢٥؟.

وكيف يمكن ان يتحدث عربي عن السلام، وهذا هو الواقع؟ وكيف يريدنا العالم إلاّ نرى عملية الاستيطان الكبرى، التي تحدث أمام كل عيوننا؟.

ثالثاً: إن «دولة اسرائيل» دولة ارتباط خارجي. ولذلك، فانها تقوم على ثلاثة دعائم:

الدعامة الأولى: «استيراد» السكان من الخارج. وقد تحدثنا عن ذلك عند حديثنا عن طبيعتها الاستيطانية. ونرى ان نضيف هنا أن سكانها، ومنذ ١٩١٨، ليسوا إلا مستوطنين جدداً. ومن هنا، فان الزيادة السكانية، تأتي من الاستيطان أساساً، وليس من الولادات، بغض النظر عن نسبة المواليد، في سنة معينة، بالنسبة لنسبة المستوطنين الجدد، لان نسبة الزيادة العامة من الاستيطان تظل كبيرة، حتى لو قلت في بعض السنوات. ثم إن أبناء المستوطنين بالقوة، يظلون مستوطنين، كما حصل في كل وقائع الاستيطان الاستعماري.

وقد جعلت هذه السمة الكيان الصهيوني مماثلاً لاي تجمع استيطاني، من حيث العلاقة بين المشروع الاستيطاني والخارج، ومن حيث الارتباط بدولة راعية وحامية.

الدعامة الثانية: «استيراد» عوامل القوة الاقتصادية والعسكرية من الخارج. وهناك مصدران رئيسان لذلك:

١-الحركة الصهيونية العالمية، والمنظمات اليهودية. وتؤمن هذه المنظمات مراكز مساندة في الميادين التالية:

أ- الدعم المالي لحكومة «اسرائيل» ،وللأحزاب والجماعات الدينية فيها، وللمؤسسات الرسمية والشركات الخ.

وليس من السهل الحصول علي معلومات عن كل نشاط هذه المنظمات ،ولكن هناك معلومات : «تشير إلى أن المساعدات الخاصة، التي حصلت عليها اسرائيل، ما بين ١٩٤٨ وسنة ١٩٨٦، قد بلغت ٢٤,٥ مليار دولار، موزعة على النحو التالي :

-مساعدات من أفراد :٦,٥ مليار دولار.

- مساعدات من مؤسسات :١١,٠ مليار دولار.

- مساعدات السندات الاسرائيلية :٧,٠ مليار دولاراً[٢١].

ب- الضغط على الحكومات لتقديم كل أشكال المساعدات لـ: «دولة اسرائيل».

جـ- تعبئة اليهود خاصة، وسائر قطاعات الرأي العام في كل دولة، لتأمين التأييد لـ: «دولة اسرائيل»، وللحركة الصهيونية العالمية.

٢- الحكومات ذات العلاقة او المصلحة :وقد اختارت الحركة الصهيونية حكومة بريطانيا لتكون راعية لمشروعها. وظل الأمر كذلك، حتى سنة ١٩٥٧. ولكن بريطانيا التي خرجت ضعيفة من الحرب العالمية الثانية، لم تكن قادرة على الوفاء بحاجات الكيان الصهيوني الذي أعلن دولته، سنة ١٩٤٨. ولذلك، لجأت «دولة اسرائيل» الجديدة الى ثلاثة مصادر، الاول، حكومة الولايات المتحدة الاميركية، والثاني: حكومة فرنسا، والثالث حكومة ألمانيا.

وفي المرحلة الأولى ١٩٤٩-١٩٥٩، كانت المساعدات الاميركية الاقتصادية والعسكرية جزءً من مساعدة اكبر، وبلغت سنة ١٩٤٩-١٩٥٠ ما مجموعة ٥٥٢,٩ دولار. منها ٣٣٩,٣ قروض، و ٢١٣,٦ مساعدات. وبلغت هذه المساعدة ١٩٦٠-١٩٧٠، ما مجموعة ٩٢٨,٤ دولار، منها ٨٨٢,٦ قروض و ٤٥,٨ منح. ورغم أهمية هذه المساعدات، في هذه المرحلة، فان هناك مساعدات اخرى، قدمتها المانيا، باسم التعويضات، وبلغت ١,١ للحكومة الاسرائيلية، و«ما بين ٧٠٠-٩٠٠ مليون دولار سنوياً» تعويضات خاصة للأفراد [٢٢].

وكان السلاح فرنسياً في المرحلة الأولى. ولكنه ما لبث أن أصبح اميركياً، بعد القرار الفرنسي، بوقف تصدير الأسلحة الى «اسرائيل».

وأخذت المساعدات الأميركية، منذ حرب ١٩٦٧، تزداد بوتيرة جديدة، فكانت المساعدات العسكرية، سنة ١٩٧١ مبلغ ٥٤٥، والمساعدات الاقتصادية ٥٥,٨ مليون دولار، وسنة ١٩٧٢ كانت المساعدة العسكرية ٣٠٠، والمساعدة الاقتصادية ١٠٤,٢. واذا كانت الوتيرة لم تتغير سنة ١٩٧٣، فان قفزة نوعية، حصلت، منذ حرب ١٩٧٣. ولذلك بلغت المعونة العسكرية، سنة ١٩٧٤ مبلغ ٢,٤٨٢,٧ مليار دولار. واذا كانت قد انخفضت سنة ١٩٧٥ الى ٣٠٠ مليون دولار، فانها عادت وارتفعت سنة ١٩٧٦، الى ١٧٠٠,٠. وظلت مرتفعة، ولم تنخفض، منذ ذلك الحين عن ١٠٠٠مليون دولار. وان كانت قد بلغت مبلغ ٤٠٠٠ مليون سنة ١٩٧٩[٢٣].

واقترن بذلك تصاعد المعونة الاقتصادية، منذ ذلك الحين، لترتفع الى ٣٥٣,١، سنة ١٩٧٥، والى ٧٨٢,٠ سنة ١٩٧٦. ولتصل الى ١٩٥٠، سنة ١٩٨٥و ١٩٨٦ [٢٤].

وكان معظم هذه المبالغ منحاً، منذ ١٩٧٤، واذا كانت قيمة المشتريات العسكرية، سنة ١٩٧٤ مبلغ ٢٤٨٢,٧، كما ذكرنا، فقد احتسب منها مبلغ ٩٨٢,٧ قرضاً، ومبلغ ١٥٠٠ منحة، بينما كانت المعونة الاقتصادية ٣٥٣,١، سنة ١٩٧٥، كان منها ٨,٦ قرضاًو ٣٤٤ منحة.

غير أن المعونات العسكرية والاقتصادية، تحولت كلها الى منح، منذ ١٩٨١[٢٥].

وقد بلغ مجموع المعونة ٣٤٥٢,٠ سنة ١٩٩٠. وهو الآن، ومنذ ١٩٨٦، ما بين ثلاثة مليارات واربعة، اذا حُصِرت المعونة في المعونات الاقتصادية والعسكرية المعلنة والرسمية.

ويستطيع من يتابع أشكالاً أخرى من المساعدات، أن يضيف الى القائمة إضافات ذات شأن. ومن ذلك المساعدات التي تقدمها وزارة الخارجية الاميركية لاعادة توطين اللاجئين اليهود من الاتحاد السوفياتي. وقد أُقرت هذه المساعدة، منذ ١٩٧٣، وبلغت قيمتها حتى الآن ٩٩٣,٤ مليون دولار. وهناك مساعدات تخصصها وزارة الدفاع، ومن ذلك قيمة تخزين أسلحة في «اسرائيل». ففي سنة ١٩٩٥ خصص مبلغ (٢٠٠) مائتي مليون دولار ثمن معدات، وخصص سنة ١٩٩٦، مبلغ (١٠٠) مائة. وهكذا. وقد كلف برنامج صاروخ (آرو) منذ ١٩٨٨ مبلغ ٦٣٥ ستماية وخمسة وثلاثين مليون

دولار. وقد وعد المسؤولون الاميركيون بدفع مبلغ ٧١١,٣ سبعماية وأحد عشر وثلاثة اعشار، حتى سنة (٢٠٠١). وهكذا.

وكانت قيمة المعونات العسكرية، من ١٩٤٨-١٩٨٩ مبلغ ٢٨,٥ مليار دولار، منها ١٦,٥ مليار من المنح. وكانت قيمة المعونات الاقتصادية ستة عشر مليار وثلاثمائة وثلاثين مليوناً (١٦,٣٣)دولار في المدة عينها، بلغت قيمة المنح منها سبعة وثمانون بالمائة[٢٦].

أمّا اليوم، فهناك منح، منذ ١٩٨١، لاغير.

وهناك مساعدات أخرى، من حكومات أخرى، الى جانب المعونات المشار اليها.

وترتبط المعونات الاقتصادية والعسكرية بمعونات تتعلق بفتح الاسواق، والغاء العقبات التي تقف في طريق التعاون مع «دولة اسرائيل»، ومعونات تتعلق بالتطور التكنولوجي [٢٧]. وهناك أساليب أخرى كاعفاء ٢٧٠٠ سلعة زراعية «اسرائيلية» من الجمارك، والسماح بشراء أسلحة اميركية بأسعار رمزية لبيعها الى طرف ثالث، وهكذا[٢٨].

وهناك، بالاضافة الى ذلك، قرار آلان كرانستون، عضو مجلس الشيوخ الديموقراطي، الذي ألزم كل قرار اميركي يتعلق بالمساعدة الخارجية، برصد أموال من صناديق الدعم الاقتصادية تكفي لمواجهة أعباء الديون المترتبة عليها[٢٩].

إن « عملية الضخ » هذه، سواء جاءت بسلع تجارية أو أسلحة أو أموال نقدية، أو خبرات وخدمات، فانما تعطي « دولة اسرائيل » عوامل قوة، لا تتوافر لأية دولة أخرى. وقد بلغت حصة « اسرائيل » من الدعم الاميركي النظامي ٥٧٪ من مجموع المخصصات لما يسمى الشرق الأوسط وبلغت: « تقريباً ثلث ميزانية المساعدات الخارجية الاميركية، رغم أن اسرآئيل تمثل ٠,٠٠١ من السكان، في العالم، ولديها واحد من اعلى الدخول بالنسبة للفرد في العالم »[٣٠].

وقد بلغ مجموع ما دفعته حكومات الولايات المتحدة الاميركية، لحكومة « اسرائيل »، أو لحسابها منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٨٩ ما مجموعه مائة وثمانية وستون ملياراً من الدولارات، موزعة كما يلي:

وهو مما اقتضى ان يقول د. ستيفين زونس (Stephen Zunes) الاستاذ المساعد في قسم السياسة في جامعة سان فرنسيسكو: « إن علاقة الولايات المتحدة الاميركية باسرائيل، الخاصة بالمساعدات، لا تشبه أية علاقات أخرى في العالم، وفي الحقيقة، لا تشبه أية علاقات أخرى في التاريخ »[٣١].

ان « دولة اسرائيل » كل قوام وجودها في الخارج ومن الخارج.

هامش -٩-

١- ايهود براك: مرجع سابق، ص٢٥٠-٢٦٣.

٢-كلمة وزير الدفاع الاميركي أمام ايباك ،المصدر: مجلة الدراسات الفلسطينية، ص(٢٠٦-٢١١).

Mideast Mirror,June16,1993

Steve Rodan:Ibid.P.P.18-20-٣

Abba Eban:Ibid.P.P.323 and 366-٤

٥- صبري جريس وأحمد خليفة (تحرير):مرجع سابق ،ص ٣٧-٨٨

ود. أسعد عبد الرحمن ونواف الزرو :موجات الغزو الصهيوني. صراع البقاء والاجلاء ١٨٨٢-١٩٩٠،دار اللوتس ١٩٩٠.

وعبد الحليم حزين (ترجمة) :هجرة اليهود السوفيات والاستيطان الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة .مكتب الغد للدراسات والأبحاث ،عمان ١٩٩١.

٦- وليد معمري: يافا : «ترانسفير» معادٍ للعرب، مجلة الدراسات الفلسطينية ،العدد الخامس (٥) ،شتاء١٩٩١،ص٣٣٣- ٣٣٧.

٧- وليد معمري :المرجع السابق ،ص٣٣٥.

٨- وليد معمري: المرجع السابق، ص٣٣٧.

٩-مأمون كيوان: تهويد الجليل،١٩٤٨-١٩٩٣،مجلة الأرض ،العدد السابع،تموز١٩٩٤،ص٢٨-٤٧.

١٠-مأمون كيوان : المرجع السابق، ص٢٨-٤٧ .

١١- مأمون كيوان : المرجع السابق، ص٢٨-٤٧ .

١٢-مأمون كيوان : المرجع السابق، ص٣٨ .

١٣-مأمون كيوان : المرجع السابق، ص٣٩ .

١٤- عبد معروف :الدولة الفلسطينية ومشاريع الاستيطان ،دار الكتاب الحديث،١٩٩٤،ص٨٤-١٠٣ .

١٥- عبد معروف :المرجع السابق، ص١٠٤-١١٦ .

١٦-ربى الحصري: كيف دَمّر الاسرائيليون حي التفاح في غزّة. مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ١٤ تاريخ ربيع ١٩٩٣، ص ١٣٤-١٤٠ .

جيفري ارونسون :مستقبل المستعمرات الاسرائيلية في الضفة والقطاع .مؤسسة الدراسات الفلسطينية ،١٩٩٦،ص٥-٢٦ .

١٧-أحمد سعد : ،مشروع طريق « عابر اسرائيل » واسقاطاته الاستراتيجية ،مجلة الدراسات الفلسطينية،ص١١٩-١٢٧ . العدد ١٤، ربيع ١٩٩٣ .

١٨-مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، الكتاب السنوي لسنة ١٩٦٧ ،سنة ١٩٦٩ ،سلسلة الكتاب السنوي،ص٣٥٩ .

١٩-الدراسات الفلسطينية : المرجع السابق، ص٣٧٠ .

٢٠-The Jerusalem Post Magazine.June 18- 1996.P.P.3.

٢١-د .فضل النقيب : مرجع سابق،ص١١٩ .

٢٢-د .فضل النقيب :المرجع السابق، ص١١٣ .

٢٣- د.فضل النقيب: المرجع السابق، ص١١٥ (الجدول).

٢٤- د.فضل النقيب،المرجع السابق،ص١١٦.

٢٥-د.فضل النقيب :المرجع السابق،ص١١٥-١١٦.

٢٦- د. محمد عبد العزيز ربيع: المعونات الاميركية لاسرائيل. مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٠، ص ١٢٢ و١٣٠.

٢٧ د. محمد عبد العزيز ربيع، المرجع السابق، ص ١٦١-١٨٦.

٢٨- د. فضل النقيب: المرجع السابق، ص ١١٨.

٢٩- د. محمد عبد العزيز ربيع: المرجع السابق، ص ١١٥.

٣٠- Stephen, Zunes: The Stategic Function of U.S. Aid To Israel. Mid-East Policy, Vol, IV, No 4 October 1996. P.P. 90-101.dle

٣١- Stephen Zunes: IBID, P.P. 90.

-١٠-

أخيراً، وبعد ذلك كله، ما هو أفق السلام؟. إن كل تجارب التاريخ المعاصر أثبتت حقيقتين :

الأولى : إن تجارب الاستعمار عامة، والاستعمار الاستيطاني خاصة، لا تتخلى عن سياسة الاحتلال، والاستيطان أبداً، وأنها تلجأ دائماً الى التوسع وفرض هيمنتها بالقوة. وتظل القوة هي الأساس في كل سياساتها. ولم يثبت أن هناك حالة واحدة، شذت عن هذه القاعدة.

الثانية :أن كل هذه « التجارب » هزمت في الميادين، قبل ان تعترف بالهزيمة على مائدة المفاوضات؟.

فلماذا ستكون « التجربة الصهيونية »، وهي تجربة استعمارية استيطانية تجربة شاذة؟. انها من حيث طابعها الاستعماري الاستيطاني تجربة نوعية جديدة. وهي هنا تخوض معركتين في آنٍ معاً :

١ــمعركة الدفاع عن المصالح الامبريالية، في هذه الرقعة من العالم، في وقت عادت فيه الامبريالية الى المد مؤقتاً.

٢ــمعركة اليهود الذين نقلتهم من كل أنحاء العالم، لتحشدهم في « دولة اسرائيل »، ولتجعل منهم كلهم جنود معسكر محاصر، حتى لو وقعت عدة حكومات عربية، مع هذه الدولة « اتفاقات سلام ».

ولا مجال، لأن تتوقف هذه المعركة، إلاّ اذا باتت الأمة العربية غير قادرة على الصراع. وهذا ما تعمل له « حكومة اسرائيل »، وحكومات واشنطن ولندن، منذ وعد بلفور.

فهل يمكن ان تشل الارادة العربية الى الأبد؟.

لقد شلت الارادة العربية، ما بين ١٩١٧ و ١٩٤٧ لتقوم « دولة اسرائيل ».

ثم حدثت محاولات لاعادة بناء الوطن، والاعداد للمواجهة. ولكن هذه المحاولات احبطتها القوى الامبريالية من جهة، وعوامل قصورنا من جهة أخرى. وها نحن نعود الى حالة من الشلل، رغم كل التضحيات.

واذا لم نعد العدة للصراع، فان معسكر الاعداء، سيعمل على تحويل الشلل الى موت، فان لم ينجح، فالى إطالة أمد العجز. . . .

لذلك، يجب أن تُعد العدة للمواجهة سريعاً.

إن لدينا من الامكانيات ما يسمح لنا بذلك، ولكنا لم نستخدم هذه الامكانيات منذ بدء الصراع، لأن السياسات الرسمية العربية، تعمل دائماً لتحجيم امكانيات الأمة، وإظهار عجزها، حتى لا تطمح بتغيير السلطات القائمة ؛ وفرض ارادتها !!.

وعلى الأمة ان تتحمل مسؤوليتها بلا تأخير. وأن تتذكر اطروحات نجيب عازوري في اول القرن التي أكدت وجود قوتين متناقضتين، لا تتعايشان. وهو ما أيدّه فيه كل الذين جاءوا بعده، من نجيب نصّار إلى كل كتاب المفيد والمقتبس وسائر الصحف القومية.

الأساطير والوقائع

الصّهيونيّة والأمّة العربيّة

موضوع هذا الكتاب هو: الصهيونية والأمة العربية، أي كيف تنظر الصهيونية الى الأمة العربية؟ وكيف ترى نظريا علاقة وجود دولتها بالوجود العربي، وكيف تتصرف عمليا؟

واضطررت هنا أن أعود إلى «أساطير بني اسرائيل»، وأن أحاول تفسير تحوّل هذه الأساطير الخرافية بطبيعتها إلى وقائع، ومع أنَها «وقائع اسطورية»، تتناقض مع الفكر الفلسفي والعلمي والقانوني للعصر الحديث.. لكنها تنسجم انسجاما كاملا مع وقائعه...

... إن «دولة اسرائيل» التي استندت نظريا إلى العهد القديم، وسياسيا إلى كتابات المنظرين الصهيونيين عامة، وإلى كتاب هرتزل «الدولة اليهودية» وقرارات المؤتمرات الصهيونية خاصة، تمثل اليوم قوة عسكرية مدججة بالسلاح، ذات برنامج معلن، تفرض سلامها على الوطن العربي والعالم الاسلامي، واعادة صياغة هذين العالمين، بما يوافق استمرار الوجود الصهيوني وتطوره.

واذا كنا في الماضي، وحتى قيام هذه الدولة، سنة ١٩٤٨، نبحث عن الاشارات والدلالات في الكتابات والوثائق، فإننا اليوم نملك ذخيرة أغنى واكثر وضوحا،وهي «أعمال دولة اسرائيل» في الأرض المحتلة وما جاورها، وفي الوطن العربي والعالم الاسلامي، وكل العالم...

الناشر
دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان - الأردن
دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله - فلسطين
تصميم الغلاف: محمد نصرالله